

١

استرداد الأرض المقدسة
تأليف بيير دوبوا

بسم الله الرحمن الرحيم توطئة

كان للحروب الصليبية أبعداً أثار على أوروبا الغربية بشكل خاص، وقد فتحت هذه الحروب آفاق المعارف العقلية والجغرافية أمام الأوربيين، وأخرجتهم من الواقع الإقليمي الضيق، إلى الانفتاح العالمي، ومن ظلام العصور الوسطى إلى نور المعرفة، والاستعداد إلى دخول عصور النهضة، ومن الصراع بين الامبراطورية والبابوية إلى قيام مشاريع الدول القومية وتراجع البابوية، وقاد هذا كله نحو تأسيس الجامعات وانتشار الثقافة، وظهور عدد كبير جداً من الفلاسفة والمحامين والمفكرين السياسيين الذين تأثروا كثيراً بمعطيات الحضارة العربية، عن طريق الترجمة والاحتكاك المباشر، وعن طريق الذين هاجروا من اسبانيا وسواها إلى فرنسا نتيجة لحروب الاستغلاب ومحاكم التفتيش.

وترافق هذا مع النشاط الهائل للدول الإيطالية، وبوادر مشاريعها الاستعمارية الاقتصادية، التي تجلت باحتلال القسطنطينية، واقطاع الطليان أحياء خاصة في مدن الشام، ذات امتيازات واعفاءات، أي ما يشبه المستعمرات والمستوطنات، وكانت أوروبا قد تفوقت بحريا على كل ماسواها، واستحوذت على البحر المتوسط، بعد الاستيلاء على جزيرة صقلية وبعض شواطئ المغرب، وذلك بالإضافة إلى ما كان بيد الفرنجة من شواطئ الشام.

وتزامن هذا كله مع ظهور المغول كقوة فاعلة في المشرق العربي، ومع هذا كله، ظلت الوحدة التي تأسست أيام نور الدين بين مصر والشام تؤتي أفضل الثمار، فبجيشوش الوحدة تحقق النصر في دمياط ثم في

المنصورة، وبعدها في عين جالوت وحررت أنطاكية ثم طرابلس، وأخيراً عكا عام ١٢٩١م، وهنا بدأت العقول الأوربية تحاول استيعاب الدروس المستفادة من قرني الحروب الصليبية، وظلت الأصوات عالية تنادي بحملة صليبية جديدة، لكن الآن حلت العقلانية في التخطيط محل الانفعال و التحريض والإثارة، وشرع بعض رجال الفكر من علمانيين وكهنة في تقديم دراسات ومذكرات من أجل عمل صليبي أوربي موحد، وفي سبيل تحويل احتلال الأرض في الشام إلى احتلال دائم، ولتحويل العرب إلى الكاثوليكية أو فنانهم، واهتمت هذه الدراسات بمصر، وآمنت أن الطريق إلى القدس لا بد وأن يمر عبر مصر، وأراد الأوربيون احتلال مصر، لكن بحملات جانبية، بعد اخفاق الحملات الجبهوية، وكثيرة هي الكتابات الأوربية التي خرجت إلى النور في مطلع القرن الرابع عشر حول هذا الموضوع، وأبرزها وأهمها جميعاً كتابي «استرداد الأرض المقدسة» للمحامي الفرنسي بيير دوبوا، وكتاب «الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة» للايطالي مارينو سانوتو.

ففي الوقت الذي جرى فيه تصنيف هذين الكتابين، كان جوانفيل قد كتب كتابه عن حياة لويس التاسع، ولأهمية مطلع القرن الرابع عشر، هناك مدخل دراسي واسع حول هذا الموضوع في مطلع كتاب «الاسترداد» لدوبوا، ونجد في هذه الدراسة وفي نصي الكتابين، صورة عقلية الغرب الأوربي، هذه العقلية التي استمرت على المنهج ذاته حتى القرن العشرين، وتساور المرء الشكوك حول تغييرها في القرن المقبل.

والمناداة بدمج المنظمات العسكرية، وبالقيام بأعمال تبشيرية منظمة وبالاهتمام بالعربية، وبالعمل على تحويل المسلمين عن دينهم، التي نجدها في الكتابين هي الأمور التي طبقتها أوروبا تحت عناوين التبشير

والاستشراق والاستعمار، وهي الأفكار التي على أساسها قامت الحركة الصهيونية، ولنتذكر دوماً أن الغرب هو الذي أوجد إسرائيل، وما برح يمدّها بأسباب الحياة.

ومهما تحدثت عن محتوى هذين الكتابين في هذه التوطئة، سيكون ذلك قاصراً لا يفي بالغرض، والذي يفي بالغرض هو قراءة النصين بتمعن، ومن ثم استعراض ما وقع منذ القرن الرابع عشر حتى الآن، وليس غرضي هنا كربلاوياً فيه النحيب والشكوى من الاستعمار ومن الغرب، بل الغرض المعرفة، والقول بأن حوادث التاريخ هي حوادث صراعات بين الشعوب، والمسألة ليست مسألة عدل وظلم، لكنها قضية قوي وضعيف، ودائماً مصدر القوة الوحدة، ومصدر الضعف التمزق، فقد أخفقت كل مشاريع أوروبا مجتمعة قبل القرن الرابع عشر، بفضل وحدة مصر والشام، هذه الوحدة التي شكلت المكافئ لكل أوروبا، وشكلت المرجعية العلمية والشرعية، فقد كانت الخلافة العباسية في القاهرة تشكل رمز الشرعية، وعمل الأزهر وشغل دور المرجعية العلمية، وسبيل الحفاظ — الآن — على مصالح الأمة العربية ومعها الشعوب الإسلامية، مرتبط بإعادة بعث هذه الوحدة وهذه المرجعية، فإذا اتحدت مصر والشام أمكن للعرب أن يتلاقوا، ولقاء العرب وتوحيد إرادتهم هو السبيل الوحيد أمام المسلمين في قرن مقبل، القول الفصل فيه، والانتفاء إلى الثقافات، فالثقافة الآن هي التي تحدد الهوية، وكانت مصر والشام قد اتحدتا أيام نور الدين لغايات جهادية عربية إسلامية، وبالفعل حققت هذه الوحدة العديد من المعجزات، والجهاد في سبيل البقاء العربي، وفي سبيل تحرير الأرض، وفي سبيل رفع الضيم عن المسلمين، وفي سبيل إنسانية أفضل وأكثر سعادة، وأقل سفكاً للدماء، يستدعي الحال الآن بإلحاح كبير، إعادة الوحدة ما بين الشام — كل الشام — وأرض الكنانة.

ويشير الكتابان عدة أمور تتعلق بشكل رئيسي بطائفتي الداوية والاسبتارية وبالشؤون العسكرية، ولهذا عازمت على أن ألق بموسوعتنا ثلاث دراسات حديثة : عن الحروب الصليبية المتأخرة، أي حتى معركة وادي المخازن، وعن فن الحرب حتى تحرير عكا، وعن طائفتي الداوية والاسبتارية.

والله المعين والموفق إلى السداد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٤ — ربيع الأول ١٤٢٠هـ / ١٧ — حزيران ١٩٩٩ م

مدخل

ترجمة مختصرة لبير دوبوا

معلوماتنا عن حياة بير دوبوا Pierre Dubois وأعماله قليلة جداً، فلم يترك لنا مجلد مراسلات شخصية أو رسمية، مثلما فعل بيروديلافينا Vigna الذي كان سكرتيراً ومستشاراً لفردريك الثاني، وما من أحد سواه من بين الأسرة الرسمية للملك فيليب الجميل، بقي تقريباً من دون ذكر داخل كتلة مواد الوثائق، التي مكنت هولتزمان بأن ينشر مجلداً حول وليم أوف نوغاريت Nogaret ، وقد جرى نشر أوراقه الكثيرة في الغالب مجهولة بين منتجات قلمه المتنوعة التي بقيت لنا، وظهر اسمه بمشابه كاتب معروف في عمل واحد فقط، أما ملاحظات أعماله القليلة المتفرقة فقد ظهرت في مدونات رسمية جرى تمحيصها بشكل جيد من قبل س.ف لانغلويس Langlois ، والاحتمال ضعيف بوجود المزيد من المواد الهامة لم يتم اكتشافها، ولهذا يتوجب أن نضيف هذه المعلومات القليلة إلى ما أخبرنا به عن نفسه في أوراقه وما يمكن أن نستخلصه مصادفة من خلال البيانات المقدمة هناك.

ونعرف من هذا كله بأنه قد ولد في شمال فرنسا، وربما في، أو على مقربة من كوتانيسيز Coutances في نورماندي، وهذا واضح من أسلوبه الكتابي والأدبي، ومن معرفته بأعيان تلك المنطقة من أمثال: هنري دي ري Rie فيزكونت كين Caen، ورتشارد لينيفو Leneveu ومن حقيقة أن سكان كوتانيسيز الذين كانوا أبناء منطقته قد عبروا عن ثقتهم به مرتين لتمثيلهم في مجلس الأعيان العام Estates General ، ويرجح أنه كان من أصل برجوازي، ويدل على هذا اختياره لمهنته، وانعدام أية إشارة في كتاباته إلى أنه من أصل

نبيل أو فلاحى، ولقد أخبرنا أنه فى أيام تلمذته فى باريس استمع إلى محاضرات ألقاها توماس الأكويني وسيغردى برابنت Brabant ، وكان توماس يحاضر فى باريس فى ١٢٦٩ - ١٢٧٢، وسيغردى فى حوالي ١٢٦٦ إلى ١٢٧٦ ، وبناء عليه يمكننا القول بأن تاريخ ميلاده كان فيها بين ١٢٥٠ و ١٢٥٥ حين جرى تنظيم جامعة باريس أممياً، ويحتمل أن دوبروا اصطنع لنفسه معارف خلال أيام دراسته مع عدد من أبناء منطقته النورمانديين، الذين صاروا فيها بعد أصدقائه فى المحكمة، وتشير معارفه بالقانون المدني الروماني إلى أنه لابد قد درس هذا الموضوع فى مكان آخر غير باريس، ولعل ذلك كان فى أورلين، لأن باريس لم يكن فيها كلية قانون كافية.

ومن الممكن أن نفترض، أنه بعدما أكمل دراسته، بدأ بممارسة مهنته فى كوتانسيز، والحقة المؤكد معرفتها فى حياته، والتالية لهذه هي الفاجعة التي نزلت بفيليب الثالث فى حملته ضد أرغون سنة ١٢٨٥، وقد توفى الملك لإصابته بالمرض فى أثناء تراجعه، وكان دوبروا الآن ناضجاً بما فيه الكفاية، وصاحب خبرة كي يعمل بالمسائل العامة، ويبدو أن هذه الحادثة قد تركت تأثيراً عظيماً عليه، هذا وتوفر صداقته مع هنري دي رى، والأعيان الآخرين فى بلاط فيليب الرابع توضيحاً لمعرفة بقضايا الدولة، وتمكن من التعمق فى أحوال المملكة، فى الخمس عشرة سنة التالية، التي أصبح فيها ثرياً تماماً، واحتل منصب المحامي الملكي فى منطقة مسقط رأسه، وكانت نتائج هذه الخبرات والتأملات جهوده البكر فى الحصول على الانتباه الشعبي لأفكاره الإصلاحية، حيث وجه سنة ١٣٠٠ مذكرة إلى فيليب الرابع تحت العنوان الصارخ التالى: «خطة مختصرة ودقيقة من أجل الحملة السعيدة، ولاختصار الحروب، ومقاضاة ملك فرنسا»، ولانتملك أي دليل على أن مقترحاته كان لها أي تأثير على السياسة الملكية.

ومهما كان نوع الاستقبال الذي تلقته هذه المذكرة لعام ١٣٠٠ (هناك نسخة خطية منها وحيدة تعود إلى القرن الخامس عشر) فإن شهيته للشهرة العامة قد شحذت، وقد أعطاه تفجر الصراع بين فيليب وبونيفيس الثامن الفرصة، فقد أرسل في اليوم الذي تقدم على نشر مرسوم *Ausculta Fili* بشكل رسمي، مذكرة مختصرة إلى صديقه في باريس رتشارد لينيفو، بعنوان «مناقشات لا تقبل الجدل»، ولم تعد هذه المذكرة موجودة، وأمکننا التعرف إلى محتوياتها من خلال ملخص دقيق قدمه دوبا نفسة، في كتابه «استرداد الأرض المقدسة» (الفصل الحادي عشر)، ولا يوجد دليل على أن هذه المذكرة قد وصلت إلى الملك، ووجه في ١٥ شباط ١٣٠٢ فيليب دعوة لاجتماع الأعيان، وكان هذا أول مجلس أعيان عام نمتلك عنه سجلاً أصيلاً، وتأكدت سمته الوطنية بضمه — للمرة الأولى — ممثلين من الدرجة الثالثة، كان بينهم المحامي النورماندي الطموح بير دوبا، فقد اختير ليمثل بلدته كوتانسي.

وقام واحد من الأذكياء في حاشية فيليب بتقديم نص مكثف لـ *Ausculta Fili* مع افتتاحية *Deum Time*، واقتبس اصطلاحات مسيئة لفيليب، وعرض الادعاء البابوي وقدمه بلغة أكثر إثارة من الأصل، وتوقف دوبا عند واحد من المقاطع المتناقضة بسبب التزييف، وقام بسرعة بكتابة رد بعنوان: «تقدير لمعايير ينبغي تبنيتها»، ولا نمتلك بينة بأن هذا الرد قد جرى توزيعه بين الأعيان، لكن أن يكون قد وصل إلى علم البلاط، فهذا مبرهن عليه من خلال حقيقة أنه قد عثر عليه، مع بعض المناشير الأخرى التي كتبها دوبا، داخل مجموعة من الردود الجدلية القاسية، جرى نسخها لصالح الوثائق الملكية بتوجيه من بير دي ايتامبز *Etampes*، حافظ الوثائق من سنة ١٣٠٧ حتى ١٣٢٤.

ولانعرف شيئاً عن نشاطات دوبا كعضو في مجلس الأعيان، فقد كان في ذلك الحين «محامي القضايا الملكية في وكالة كوتانسي والمحامي

الرسمي عن الجماعة في تلك المنطقة»، ومن المعقول أن نفترض أنه كان له دوره في إثارة أعضاء منطقته للقيام بتبني قرارات لصالح «الأهداف الملكية»، وهناك بيئة حول هذا الاسهام قد ظهرت سنة ١٣٠٤، داخل منشور آخر، جاء هذه المرة بصيغة وطنية هي: «التماس الشعب الفرنسي إلى الملك ضد البابا بونيفيس الثامن»، ويشير استخدامه للغة الشعبية إلى جهد التماس موجه بشكل خاص إلى الأعيان من المرتبة الثالثة.

ولم يوقف تعليق مجلس الأعيان العام نشاطاته، فقد ذكر دوبوا في (الفصل ١١٧) من كتاب الاسترداد، أنه عهد في كانون الثاني ١٣٠٤ إلى جين دي لي فوريت برسالة عنوانها: «حول تقصير الحروب والتكتيكات المتعلقة بها»، كان من المفترض تسليمها إلى فيليب، عندما كان ذلك الملك في طولوز، وتحتوي اقتراحاً من أجل غلبة الامبراطورية الإغريقية من قبل شارل أوف فالويس Valois ، بمساعدة الملك الفرنسي ، وخطة مفصلة حول السياسة العسكرية المتوجب اتباعها، وهذه الرسالة، رسالة سنة ١٣٠٤ قد فقدت، ولعلها صياغة جديدة لمذكرة «الخطة المختصرة» لسنة ١٣٠٠.

وكتابه الرئيسي هو «استرداد الأرض المقدسة»، وقد كتب في وقت ما فيما بين تكريس كليمنت الخامس، ووفاء إدوارد الأول، وكان كليمنت قد توج بابا في الخامس من حزيران سنة ١٣٠٥، ومات ادوارد يوم ٧ تموز ١٣٠٧، ولن نكون مخطئين كثيراً إذا ما قلنا بأن سنة ١٣٠٦ كانت السنة التي أُلّف فيها كتاب الاسترداد، فقد توجه في مطلع الكتاب بالخطاب إلى ادوارد الأول، ووصف المؤلف هنا نفسه بقوله: «المحامي المتواضع لقضاياه (ادوارد) اللاهوتية في تلك الدوقية» (أكوتين)، ويبدو أن التعارض بين مركزه كمحامي لفيليب وخدمته لصالح ادوارد، لم يسبب له مصاعب كبيرة. على الرغم من العداوة المريرة التي كانت قائمة آنذاك بينه وبين فيليب، وبحكم كون ادوارد دوقاً لأكوتين فقد

كان من أتباع فيليب، ومما لاشك فيه، أنه في وقت ما بعد إبرام الصلح في سنة ١٢٩٩ بين ادوارد وبين فيليب، عمل دوبوا مستشاراً لادوارد في بعض من قضاياه الكثيرة التي أثارت صراعاً فيما بين القضاء المدني والقضاء اللاهوتي في أكوتين، ويبدو أن استخدامه من قبل ادوارد كان في مناسبات كثيرة، وقام س . ف لانغلويس بالتحري الدقيق لوثائق الممالك الغسكونية لادوارد الأول، فلم يعثر على أي ذكر لدوبوا كعامل ملكي في أكوتين، هذا ولم تكن الخدمة المزدوجة فريدة في بابها بأي حال من الأحوال، فقد قام محامون آخرون من ذلك العصر بمثل هذه الأعمال ومن هؤلاء كان غليوم دي بريول Breuil .

وبعد ظهور «الاسترداد» بقي قلمنا الكاتب للمناشير بدون نشاط لمدة عامين، ويبدو أنه كان قد عاد إلى نورماندي، ليبارس مهنته وليرعى مصالح جماعته المحلية، وقد ورد ذكره في رسائل ملكية تاريخها شهر أيار عام ١٣٠٧، فيها نُحلى فيليب، بناء على طلب بيير دوبوا، محاميه الملكي في وكالة كوتانسيز عن بعض الاستحقاقات العائدة له عند كهنة تلك البلدة، وسعى رينان إلى التعرف على وجوده مع بطرس دي بوسكو Bosco ، الذي ورد ذكره بتاريخ ١٣ شباط لعام ١٣٠٧ ، فوق ألواح من الشمع حول الحسابات الملكية، لقيامه بشراء منازل للفريق الملكي، أثناء زيارة فيليب لنورماندي، وهذا أمر مشكوك به كثيراً، فواحد بمكانة دوبوا في ذلك الحين، كان من الصعب توجيه الدعوة إليه للعمل بمثل هذا العمل المتواضع.

ومنحه الهجوم على الداوية فرصة جديدة، فقد جرى اختياره مع واحد فريزي ثانية ليمثل منطقته في مجلس عام للأعيان، عقد في تور في سنة ١٣٠٨ ، وجاء وصفه في وثيقة انتخابه: «محامي للقضايا اللاهوتية الملكية في وكالة كوتانسيز»، وقد أنتج في ذلك العام خمس رسائل، في اثنتين منهن حملة مختصرة على الداوية، وكانت إحداهن عامة، أما الثالثة

فكانت نسخة جديدة من الاسترداد، وهي مفقودة الآن، وكانت قد قدمت إلى الملك في شينون Chinon في ٢٣ أيار ١٣٠٨ ، بعد تعليق المجلس، وجاءت معرفتنا بها من خلال إشارات قام بها دوبوا في مذكرات تالية، ووجهت هذه بشكل رسمي إلى البابا، مثلما جرى توجيه النسخة الأصيلة من الاسترداد إلى الملك أدوارد الأول، وجاء صلب الموضوع هو نفسه إلى أبعد الحدود، والخلاف هنا عن النص الأصيل هو اقتراح تقدم به من أجل تمتين المنظمات العسكرية وتعيين ملك قبرص في القيادة.

وكان الدافع لكتابة الرسالة الرابعة لعام ١٣٠٨، ذات عنوان «مشكلة الأرض المقدسة»، هو أحداث ألمانيا، فقد جرى اغتيال الامبراطور ألبرت الأول في ١ - أيار، وانتهز كاتبنا المتشوق للشهرة الفرصة ليقتراح على فيليب الرابع أن يطلب من البابا تعيينه امبراطوراً، وقد أباح دوبوا هنا واحدة من انعدام التزامه المتكرر، وتغييره لمواقفه، فقد كان معروفاً أنه خلال النزاع بين ألبرت صاحب النمسا وأدولف صاحب ناسو Nassau من أجل العرش، قد راج اقتراح بأن يتولى البابا بونيفيس الثامن عملية تعيين الامبراطور، وكان دوبوا قد أنكر آنذاك امتلاك البابا لمثل هذه السلطة، لكن الآن، عندما بدت الظروف وهي تقدم فرصة لزيادة حجم مملكة الملك الفرنسي مع سمعته، اقترح أن يقوم كليمنت الخامس باستخدام السلطة نفسها التي رفضها في حالة بونيفيس الثامن، ويبدو أن دوبوا قد عدّ البابا فرداً عادياً بلا سلطة عندما كان إيطالياً معادياً لفرنسا، لكن عندما كان فرنسياً، له عواطف جيدة نحو الملك، فهنا عدّه دوبوا صاحب سلطات رسمية غير محدودة، ولم يقيم فيليب بأي عمل جدي في هذا المنحى، لكنه اتخذ خطوات لضمان انتخاب أخيه شارل أوف فالويس.

وكان الانتاج الأخير لهذا العام رسالة وجهت إلى فيليب، اقترح فيها

إيجاد مملكة في الشرق الأدنى من أجل ابنه الثاني، فيليب الطويل، وتوسع محتوياتها عدّها بمثابة ملحق «للاسترداد» ولهذا ترجمت وألحقت بترجمة المجلد الحالي.

وبعد هذا النشاط المثير لعام ١٣٠٨، أخذ دوبوا إلى الراحة لمدة خمس سنوات، فالمصادر لا تشير إلى أي أثر من النشاط الأدبي قام به من جانبه، لكن هل أنتج رسائل أخرى لم تبق لنا ولم يتم التعرف عليها؟ وهل شعر بالاحباط لأن جهوده لم تأت بأي استجابة من الملك؟ أم أن سياسات فيليب حققت ما يكفي من نجاحات حتى لم تبق هناك حاجة إضافية للتوجه نحو الرأي العام؟ ولقد استمر وليم نوغاريت No-garet في خضم المعركة ينشر منشوراً لتسويغه، لكن المحاكمة المخففة لبونيفيس في سنة ١٣١٠ أخفقت في إثارة المحامي النورماندي لانتاج أي أثر أدبي، ولم يثر مجمع فينا، الذي حلّ منظمة الداوية أية ردات فعل من قلمه.

واستطاعت عين س . ف . لانغلويس الثاقبة، والخبيرة تماماً بالخصوصية الأدبية لدوبوا، التعرف إلى أنه مؤلف رسالة صغيرة، كتبها فيما بين تشرين أول ١٣١٣ وأيام الصوم الكبير في سنة ١٣١٤، بعنوان «مبارزات ومنازلات»، ولم تنظر الكنيسة قط بعين الرضا إلى المعارك الصورية، التي أحببتها قلوب الفرسان كثيراً، وكانت الملكية أيضاً تميل نحو التقطيب تجاهها لأن عدداً كبيراً من الرجال ومن الخيول هلكوا مما سبب صعوبات في الحفاظ على قوات فرسان إقطاعية كافية، وقبل القيام بالصليبية المقترحة، قام كليمنت الخامس في ١٤ — أيلول سنة ١٣١٣ بإصدار مرسوم *Passiones Miserabiles*، الذي أدان بشدة المبارزات والمنازلات، وفي تشرين الأول قام النائب البابوي في فرنسا بشكل رسمي بتحريم جميع المبارزات مع التهديد بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي والتكفير، وجاء الاعتراض من النبلاء الذين احترموا

المؤسسة القديمة التي كان يمكنهم من خلالها إظهار براعتهم وشجاعتهم، ومن حشد الموظفين الصغار، الذين كانت المبارزات بالنسبة إليهم مصدراً للدخل، وكذلك من العامة الذين وجدوا في مثل هذه المشاهد خروجاً مرحباً به على رتابة حياتهم، وجاءت مذكرة دوبوا مجرد طلب غير رسمي إلى البابا حتى يعلق المرسوم، وأمام مختلف الاعتراضات من الأسرة المالكة جرى تعليق المرسوم، ومن ثم ألغي أخيراً.

وعبر دوبوا في بعض رسائله عن الخوف من الأعداء الذين من الممكن قيامهم بازعاجه بسبب الأفكار التي نشرها، وبهذا أعطى مسوغاً لإبقاء اسمه مجهولاً، ويبدو أنه توفر القليل من الأساس الفعلي لمثل هذا الخوف، وعاش دوبوا بعد سيده الذي ابتغى برغبة شديدة خدمته، لكن لم تكن هناك محاولة للنيل منه، وكان الذين تعرضوا لثقل عاصفة النقد الشديد هم بعض موظفي فيليب ومستشاريه، وخاصة انغراند دي ماريني Enguerrand de Marigni ، الذي كان وزير ماله، فهذا أيضاً كان ممن تحمل عاصفة النقد التي ثارت بعد وفاة الملك، وازدادت الكراهية الشديدة لماريني بإثارة النورمان لتدبير انتخاب ابن عمه نيقولا ليكون بابا، وغياب نقد دوبوا فيه بينة إضافية على أن جهوده لنصح فيليب لم تتلق اعترافاً رسمياً.

وأصبح دوبوا بعد سنة ١٣١٤ شخصية مغيبة في الظل، ومن المحتمل أنه تابع نشاطه بمثابة محامي للتاج، إنما في منطقة أرتوا، وجاء في سجلات برلمان باريس لدورة كانون الأول ١٣١٩ اسم «المعلم بيير دوبوا» بين أصحاب تقارير التقصي، وجرى تعريفه على أنه وكيل الكونتيسة ماهوت صاحبة أرتوا، ويبدو أنه قبل وفاة فيليب (٢٩ تشرين الثاني ١٣١٤) دخل دوبوا في خدمة الكونتيسة، وقد أعدت في يوم فصح ١٣١٤ من أجل الشراء في باريس لتسعة أذرعة من القماش من أجل

مستشارها «المعلم بيير دوبوا»، وكان آخر ظهور لدوبوا في التاريخ — إذا كان في الحقيقة هو — في مادة في وثائق باس — دي — كاليب Pas - de - Calais ، حيث ورد ذكره مع آخرين شاركوا في التحقيق في بثيون Bethune في ٢٣ شباط سنة ١٣٢٠ ، وكان قد وصل آنذاك إلى سن السبعين أو ما يقارب ذلك، ولاشك أنه توفي بعد ذلك بوقت ليس طويلاً.

الاحتكام إلى الرأي العام

من الصعب الحديث عن وجود رأي عام — حسب الاصطلاح الحديث — في العصور الوسطى، ومع ذلك ثارت اهتمامات الرأي العام بين آونة وأخرى إلى حيث لجأ المتنافسون من على الجانبين، وابتغوا الحصول على شيء من التأييد الشعبي، وجرى بالضرورة توجيه مثل هذا الاحتكام إلى جزء صغير جداً من مجموع السكان، وتكون السواد الأعظم من الناس من فلاحين جهلة، الذين لم يكن لهم وزن، حتى لو افترضنا أن أحد الناس قد امتلك الوسائل، في إثارة هذا السواد نحو موقف ما.

وكان الالتجاء الجدي إلى الرأي العام يمكن توجيهه نحو فئات من المرغوب نيل مساندتها لسبب أو لآخر، وذلك من أمثال أعضاء المجلس الاستشاري الملكي، وأشخاص يفترض أن لهم نفوذهم وتأثيرهم على أعمالهم، وأعضاء من البلاط البابوي، أو أعيان من الهيئة اللاهوتية أدنى منزلة، ونزولاً من هؤلاء إلى مؤيديهم من الأدنى مكانة، ومع قيام الطبقة البورجوازية العليا وارتقائها إلى المكانة الهامة سياسياً واقتصادياً، صار من الممكن إضافة مجموعة ثالثة، من الممكن الاحتكام إليها مع بعض الأمل بالنفع.

وفي غياب اجتماعات مجالس منتظمة تضم أعضاء متمكنين من

الشعب، أخذ الاحتكام إلى الرأي العام شكل مذكرات ونشرات أو رسائل، تمت كتابتها أحياناً من قبل وكلاء جرى تعيينهم لهذه المهمة، وأحياناً من قبل متطوعين، وبالطبع لم تكن هناك وسائل تقنية للنسخ السريع، ولاخدمات للتوزيع، وحققت الأفكار التي حوتها المذكرات الانتشار بواسطة الفم في الغالب، أو بوضع المذكرة في مكان معروف، مثل أبواب الكنائس، ووصلنا عدد كبير من هذه المنشورات بنسخ خطية فريدة، تمّ حفظها في بعض دور الوثائق الرئيسة أو اللاهوتية، أو تم نسخها كلياً أو جزئياً من قبل بعض المؤرخين، الذين عدّوا القضية جديرة بالتدوين.

ومن الممكن القول بأن المنشورات من هذا النوع في العصور الوسطى تعود إلى ثلاث حقب، أو ربما أربع حقب متميزة، و جاءت الحقبة الأولى وولدت من خلال الصراع حول تقليد المناصب، التي بدأت مع محاولات البابا غريغوري السابع لاصلاح الكنيسة في ألمانيا، ولتأكيد الاستقلال اللاهوتي عن الاشراف الذي فرض من قبل الامبراطور هنري الرابع، واتسع الصراع وتطور إلى مشكلة تعلقت بادعاءات التنافس على السلطة بين القوى الروحية والقوى المادية، واستمر هذا الخلاف طويلاً بعد اختفاء الذين أثاروه على مسرح الأحداث، وأخيراً تم الوصول إلى تسوية في وفاق وورمز Worms (١٢٢٢) ، وظهر في أثناء الصراع عدد من المناشير، حاول فيها مؤيدو كلاً من الفئتين المتنازعتين الاستناد على نصوص مقتبسة من الكتابات المقدسة، ومن آباء الكنيسة، ومن تقاليد الكنيسة، ومن القوانين الكنسية، واكتشف مؤيدو الامبراطورية مخازن من الذخائر متوفرة في مناقشات القانون المدني الروماني، الذي كانت دراساته المنبعثة قد بدأت في المدارس، وكانت المناقشات من هذا المصدر قوية جداً إلى حد جعلت فيه من الكونتيسة ماتيلدا صاحبة توسكانيا — وكانت من الحزب البابوي —

أداة في إيجاد مدرسة للدراسات القانونية حيث يمكن دراسة القانون الروماني من الوجهة الصحيحة، أي من وجهة النظر البابوية، ووجهت أعمال الاقتباس للقوانين أحياناً، بتهمة بأن القانون المنقول لم يكن أصيلاً، وغالباً ما تمّ تبادل هذا الاتهام من على الطرفين، وبدأ المفكرون من الناس يسألون: «أين يمكن إيجاد الحقيقة؟» و«هل هناك حقيقة مطلقة»؟.

وتغطي الحقبة الثانية الصراع فيما بين أباطرة أسرة هوهنزولفن والبابوات، ولاسيما جهود الامبراطور فردريك الثاني للحفاظ على منصبه في وجه العداء المرير من جانب البابوين: غريغوري التاسع، وانوسنت الرابع، وكان فردريك الثاني كرجل دولة أكثر وضوحاً بالرؤية من كل من هنري الرابع أو هنري الخامس، وقد رأى أن خير سبيل أمامه هو نيل تأييد الملوك الأوربيين الآخرين، ومن أجل هذا بعث برسائل متوالية إلى الحكام وإلى مرؤوسيهم الرئيسيين، لكن ذلك كان بلا فائدة، وقد ترك لنا سكرتيره ومستشاره بيروديلا فينا — وكان معلماً في الأسلوب اللاتيني الرفيع — مجموعة من الرسائل اتخذت نماذج في تدريس الـ *Ars dictominis*، وطبعاً قد تضمنوا إشارة إلى مشاكل فردريك، وكانت هذه المجموعة متوفرة في دار الوثائق الملكية، ومن المؤكد أنه كان بإمكان رجال الدعاية البارعين لدى فيليب استخراج إشارات نافعة من محتوياتها المقنعة، وهذا أمر لم يبرهن عليه بشكل قاطع، لكن يمكن للانسان أن يتعرف إلى توفر تطور واضح المعالم لأفكار الامبراطوريين الذين كانوا في خدمة فردريك، وذلك من خلال الذين كانوا في حاشية فيليب، ومن ثم إلى الوضع الدفاعي الذي اتخذته المدافعون عن لويس صاحب بافاريا في القرن الرابع عشر.

وتقع الحقبة الثالثة خلف النطاق الزمني لهذا المجلد، ذلك أنها بدأت مع تفجر الخلاف حول الانتخاب الامبراطوري في سنة ١٣١٤، وعندما

هزم لويس صاحب بافاريا خصمه في سنة ١٣٢٢، اتخذ البابا جون الثاني موقفاً أفاد أنه وحده امتلك الحق ليقدر الخلاف حول الانتخاب، ودعا لويس إلى عرض دعواه أمام مجلس الكرادلة في روما، ورفض لويس ذلك، وحرّم كنسياً، وتعدّد الصراع المتجدد بين الامبراطورية والبابوية بصراع البابا جون وخصومته مع الفرنسيين الروحيين، الذين انضموا إلى صف لويس، وكانت عروض كلا الطرفين عالية الصوت، لكن عندما يقارن هذا مع الصراع الأبرك، نجد أن هذا كان معركة أقزام، والذي جعل هذا الصراع هاماً هو أنه دفع بجهود بعض الكتاب مثل: وليم أوف أوكهام Ockham وجين أوف جاندون Jandun، ومرسيلوس أوف بادوا Padua ، إلى توجيه ضرباتهم نحو أسس البابوية بالذات.

وأوضحت الدراسات المنشورة في مجال السياسات الفرنسية خلال حكم فيليب الرابع، أنه توفرت آنذاك حقبة واضحة رابعة للمنشورات، قد عادت من حيث التأريخ إلى ما بين الحقتين الثانية والثالثة المشار إليهما أعلاه، وقد كتبت الأعداد الكبيرة من المنشورات التي دبجها قلم وليم أوف نوغاريت وقلم بيير دوبوا، لغاية محددة هي كسب التأييد الشعبي لسياسات فيليب، وظهرت المحاججات التي التمتت تأييد وعطف الطبقة الوسطى بشكل أكثر تعاضها وتكراراً مما كانت عليه في الحقب الأبرك، وسبب ذلك أن البرجوازية قد صعدت الآن إلى مكانة بات من المرغوب فيه كثيراً نيل تأييدها، وهذه حقيقة أدركها الملوك الوطنيون، ففي أيام الامبراطورية، حتى في أيام لويس صاحب بافاريا، كانت هناك دواعي أقل لمثل هذه التوجهات بالالتماسات، لأن الامبراطورية حافظت على التنظيم الاقطاعي الذي ترك فرصة صغيرة للطبقة الوسطى للقيام بدور سياسي من هذا القبيل، وعلى العكس كان فيليب الرابع بارعاً بما فيه الكفاية لإدراك أهميتها، وهكذا طور آلية

أعطى فيها أعضاء الطبقة البورجوازية قدراً من الاعتراف السياسي، مثلما حدث بالنسبة لمجلسي أعيان سنة ١٣٠٢ سنة ١٣٠٨، فهنا حوضر عليهم من قبل عملاء فيليب، ووزعت عليهم المنشورات التي تؤيد القضية الملكية، وكان بيير دوبوا حاضراً في كلا المجلسين، وقد كان أيضاً قد تولى كتابة بعض المنشورات، وظهرت الرسالة التي نتولى الآن ترجمتها فيما بين اجتماعي المجلسين العامين.

خلفية تاريخية

ظهر بيير دوبوا على مسرح الأحداث التاريخية في لحظة حاسمة في الصراع فيما بين البابوية والدول الوطنية البطيئة الظهور آنذاك، وفي الوقت الذي انحصر فيه دور دوبوا في هذا الصراع في فرنسا إلى أبعد الحدود، كانت المشكلة نفسها أوسع بكثير، حيث تورط فيها بالفعل كل ملك وطني قد حاول أن يحكم ممتلكاته بمثابة سلطان متحرر من جميع أنواع التدخل من قبل سلطة خارجية، وحقق الوضع الجغرافي وحقائق أخرى في انكلترا، درجة من الوحدة الوطنية كانت أبكر مما حصل في فرنسا، وقد كانت مشكلة السيادة هذه قد انبعثت من قبل من وقت إلى آخر، لكن نادراً ما كانت حادة الشكل مثلما كانت عليه أثناء حكم ادوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧)، وبناء عليه إن الصراع بين فيليب والبابوية، الذي نشط دوبوا خلاله، وكان له دوره فيه، هو وإن كان متواضعاً، ينبغي على هذا النظر إليه بمثابة جزء من صورة أكبر، وحوث هذه الصورة، أكثر من الصراع حول السيادة، لقد شملت الروح المتوثبة وغير القانعة بالأشياء حسبما بدت مؤشراتنا في القرن الرابع عشر، وعمل دوبوا باهتماماته المتنوعة بمثابة واحد من أكثر المتحدثين فصاحة حول هذه التوثبات وعدم الرضا والقناعة، ومن أجل فهم مناسب لأفكاره ولأهميتهم من الضروري تقديم عرض وإن كان مختصراً عن الخلفية المباشرة للعصر الذي عاش فيه وكتب.

ولقد وصلت الاسمية الحسنة التنظيم للحياة في العصور الوسطى ذروتها في القرن الثالث عشر، وشهد هذا القرن فرض الواجهة المدرسية التي حققت كمالها الأعظم في عمل القديس توماس الأكويني، وشهدت شارة انتصار البابوية في الصراع الطويل والمتداخل ضد خصمها الرئيسي، أي الامبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت الجامعات في الشمال والجنوب تقوم ببلورة تنظيها الإدارية في أشكال استمرت بلا علامات تغيير لمدة قرون، ووصل الأدب الفردي للفروسية والملحمة، والرومانسية، إلى ذروته، وكان هناك نمط من الأدب الأقرب إلى العامية، وفي الغالب اسطوري سفيه، قد بدأ يحقق ظهوره.

واحتوى القرن الثالث عشر هذا نفسه في داخله بذور حركات تولت في النهاية تدمير كثير مما بدا أنه قوي التأسيس، فالحماسة التقوية التي دفعت بآلاف للقيام بالرحلة المرهقة لإنقاذ الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين، بدأت بالزوال، ليحل محلها السعي وراء المطامح التي بدأت بالظهور منذ أيام الحملة الصليبية الأولى، والوصول أخيراً إلى شعور بالخيبة بسبب اخفاق الحروب الصليبية، وصحيح أن الناس تابعوا الحديث والتخطيط للصليبيات جديدة، وهذا هو الموضوع الأساسي في مذكرة دوبوا الرئيسية، التي جاءت بمثابة نداء للصليبية جديدة، واحتوت على اقتراحات تفصيلية لبرنامج اصلاحي جديد يمكنه أن يضمن نجاحها، صحيح هذا لكن صحيح أيضاً أن النداءات من البابوات ومن القادة العلمانيين قد وقعت على آذان صماء، ذلك أن أوروبا الغربية كانت مهتمة أكثر بمسائل مادية، فقد ربحت المدن الايطالية مرابح هائلة من الاتصالات التجارية مع الشرق الأدنى، وقد ضمن لها موقعها الجغرافي احتكاراً فعلياً لهذه التجارة المربحة، وهناك دليل على رفض احتكارهم هذا من قبل الذين توجب عليهم دفع ما اختاره الايطاليون وطلبوه ثمناً لبضائعهم، من تعليقات دوبوا على

جشع التجار (الفصل ٦٧)، فهل ياترى اهتم التجار الايطاليون بأمر أن الذين زدوهم بالبضائع كانوا كفاراً؟ لا، ذلك أنه حتى الكافر التركي كان من الممكن أن يبرهن أحياناً على أنه حليف مفيد.

وكانت الآفاق العقلية لأوروبا الغربية آخذة بالاتساع، وسيكون من الخطأ أن نعزو سبب ذلك كله إلى الحروب الصليبية، أو أن نعزو إليها النصيب الأوفى في عملية التغييرات التي كانت قائمة، ولقد كانت الحروب الصليبية حقيقة هامة في تحريك الأوربيين الغربيين، ونقلهم من الواقع المقاطعاتي الضيق، وكانوا قد تعلموا الدرس الثمين في أن ما كل ما علموه كان صحيحاً، ومن الأدلة على ذلك مقاله ستيفن أوف بلوا، الذي كان من قادة الحملة الصليبية الأولى، حيث كتب إلى زوجته وقال وهو يشعر بشيء من اليأس: «إن مقاله بعضهم حول استحالة تحمل حرارة الشمس في أرجاء سورية غير صحيح، لأن الشتاء هناك مشابه جداً لشتائنا في الغرب».

وكان الأفق الجغرافي آخذ أيضاً بالاتساع، فمع نهاية القرن كان ماركو بولو قد عاد من الشرق الأقصى، بعد غياب هناك امتد حوالي العشرين سنة، عاد وقد حمل معه حكايات عن ثروات للتمتع بها، وعن مناظر رائعة تستحق أن تشاهد، ولم يكن ماركو بولو وحده هو الذي قام بمثل هذه الرحلة الطويلة والمرعبة، فقد قام عدد كبير من الأفراد، بعضهم كان مجهولاً، وبعضهم الآخر كان مشهوراً، بالارتحال مثل ماركو بولو، وعدد قليل منهم تركوا لنا روايات مدونة حول مغامراتهم، وكانت البابوية تحلم حول إقامة حلف مع الخان الكبير، الذي ينبغي عليه تدمير المسلمين، لأنه كان حاكماً عملاقاً، وجرى إرسال المزيد من البعثات إلى الشرق لتعميق المشروع، وتم بالفعل تأسيس رئاسة أساقفة في بكين سنة ١٣٠٧.

وهناك أدلة واضحة حول وجود شغف ثقافي، فقد كتب روجر

بيكون بشيء من الازدراء عن كتابات علماء كبار، قدموا إلى الانسانية طرائق جديدة للمعرفة، التي ادعى أنه كان شخصيا المعلم فيها، وجعل المترجمون في اسبانيا وفي جنوبي إيطاليا المعارف الاسلامية متوفرة إلى العالم الغربي، وكان خصوم المعارف الجديدة، من أمثال سيغردي براينت، يثرون المناقشات الحية في قاعات المحاضرات في باريس، ومراكز التعليم الأخرى.

أما في مجال الادارة الحكومية، فقد شرعت حقائق جديدة بالظهور، ربما كانت أقل بداهة، لكن لها أهمية قصوى بالنسبة للأفاق السياسية، فقد دخلت الامبراطورية المقدسة في مرحلة كسوف بعد وفاة فردريك الثاني في سنة ١٢٥٠، ثم انتعشت فيما بعد في ظل أسرة هابسبورغ، لكنها ظلت قائمة على القواعد الاقطاعية القديمة، وكانت أهم التغييرات قائمة وأخذة بالحدوث في المملكتين الاقطاعيتين القديمتين، أي في انكلترا وفرنسا، وعوضاً عن أن يكون الملك في أي منهما مجرد «الأول بين قرناء»، بدأ الملوك فيهما في تأكيد الحقوق والامتيازات الملكية، وكان هذا يختلف تماماً عن السيادة القديمة المعترف بها على الأتباع، وبدأ في انكلترا نظام جديد يتعلق بالقانون العام، تولت ممارسته المحاكم الملكية، وكان هذا الذي بدأ في أيام حكم هنري الأول (١١٠٠ - ١١٣٥) قد أخذ شكله النهائي في ظل حكم هنري الثاني (١١٥٤ - ١١٨٩)، وقد تقلص هذا في ظل سلوك رتشارد قلب الأسد، ثم في ظل أخيه الضعيف الملك جون، وتوقف ذلك كله بشكل فعلي بسبب ثورات البارونات أيام هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢)، غير أن هذا النظام جرى توسيعه واتمامه من قبل ادوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧)، الذي يدعى أحياناً باسم جستنيان الانكليزي، ومع سنة ١٣٠٠ كان الملك والشعب يحكمان معاً من قبل القانون، وقد أصبحت انكلترا أمة.

وفي فرنسا سعدت أسرة كاييه بشكل منفرد، وذلك منذ وصول هيو كاييه إلى العرش في سنة ٩٨٧ حتى وفاة لويس العاشر في سنة ١٣١٦، فما من ملك فرنسي قد مات دون أن يترك وريثاً ذكراً مباشراً ليخلفه، وخلال الحقبة نفسها أخذ كل اقطاع فرنسي هام، يدخل في وقت أو آخر، في الاملاك الملكية، ومع وصول فيليب الرابع إلى العرش في سنة ١٢٨٥، كانت المناطق التي حافظت على استقلالها الاقطاعي هي: كونتية فلاندرز، ودوقيات: بريتاني، وبيرغندي، وأكوتين، وكانت دوقية أكوتين مملوكة من قبل ادوارد الأول ملك انكلترا.

وترافق تأسيس السلطة المركزية الملكية مع قيام الطبقة الوسطى، التي وجدت بشكل عام أن مصالحها تتوفر أكثر بوجود ملك واحد قوي، بدلاً من وجود مجموعة متداخلة من السادة الاقطاعيين، ووجد الملوك بدورهم في الطبقة الوسطى حليفاً راغباً وثماناً لجهودهم في سبيل تأسيس سيطرة على النبلاء الاقطاعيين، أما في فرنسا فقد توفر اسهام ملحوظ قامت به الطبقة الوسطى في سبيل هذه الغاية، وتم هذا على أيدي طبقة جديدة من المحامين المحترفين الذين تدرّبوا على القانون المدني الروماني، في احدى مالايقل عن ست جامعات، وبدأ ظهورهم كطبقة مع إعادة التنظيمات القانونية التي تولّاها لويس التاسع، وازداد رواج القانون الروماني، الذي دعمت أسسه بقوة المطالب الملكية، وانتشر إلى الشمال من بولونا Bologna ومن الجامعات الايطالية الأخرى، وقام بشكل تدريجي - لكن لامفر منه - بتدمير النظام القضائي الاقطاعي القديم، وقدم الاختصاص الجديد فرصاً لمهن حياتية مربحة، وكان من الممكن لمحام قدير، أن يأمل حتى - كما فعل دوبوا - في أن يدخل إلى الوسط المغربي لمستشاري فيليب الرابع المقربين، الذي كان من بين أعضائه قانونيين لامعين من أمثال ماريني، وبلازيان Plasian، ووليسم أوف نوغاريت.

وكان فردريك بربروسا قد استخدم علماء من مدرسة الحقوق في بولونا من أجل التوسع بسياسته الايطالية، وقدمت مدارس الحقوق في أورلين وفي أماكن أخرى أدوات مماثلة إلى لويس التاسع، الذي أضاف إلى إدارتي الوكيل والنائب القديمتين ادارة جديدة هي ال-en-quetuers، وقد حل هؤلاء محل الرهبان المتسولين كأداة للإشراف على الوكالتين القديمتين، وكان هؤلاء الموظفين الجدد علمانيين من أصل برجوازي، أصبحوا ليس قضاتاً فقط بل رجال دولة أيضاً، وساعدتهم معرفتهم الدقيقة بالقانون المدني على تليفيق الأسلحة للدولة الوطنية الصاعدة، وقد أصبحوا بشكل فعلي أيام فيليب الرابع نبلاء للقانون، وقد أشير إليهم بمثابة milites legum أو Milites regis، وكان هذا نوعاً من نبالة الثوب، وبحكم كونهم خدماً مخلصين وأقوياء للملكية عارضوا حكم الدولة من قبل كل من النبلاء الاقطاعيين أو الكنيسة، ووقف ضدهم وتحزب رجال الشريعة الكنسية، مع مفهومهم وتصورهم لدولة دينية ينبغي أن تكون ذات سلطة عليا.

وأسهمت الطبقة الوسطى بدور هام في المسائل العسكرية، لأن الجيوش الاقطاعية لم تعد كافية لتلبية الحاجات المتزايدة للملكيات الوطنية، والتي كانت منذ زمن طويل تتزود بالدعم من قبل جيوش مرتزقة تشكلت بشكل رئيسي من غيرالنبلاء، ومع أن جيوش المرتزقة هذه دفع لها بشكل سيء، لكن توجب على كل حال اطعامها، وألقى الاستخدام المتزايد لوحداث مدفوع لها ثقلاً عظيماً على كاهل خزائن المال المختنقة لتلك الأيام، ولكي يواجه الملوك الطلب المتزايد على السيولة النقدية لجأوا إلى زيادة الضرائب، وجميع الأشكال المالية الموائمة، الأمر الذي قادهم أحيانا إلى صراعات مع الطبقة الوسطى، الممتكلة لثروة قد فرضت عليها الضرائب، وأحيانا مع الكنيسة التي كانت أغنى مؤسسات العصور الوسطى.

ومع وجود ملك أجنبي مثل ادوار الأول مسيطر على أكوتين بمثابة تابع للملك الفرنسي، كان لابد لسياسة التوسع لفليب الرابع من إثارة صراع معه، وفي سنة ١٢٩٤ تفجر الخلاف بالمصالح هذا وتطور إلى حرب مفتوحة، وبحث كل فريق عن حلفاء، وعرض فيليب تقديم العون على سكوتلندا، وبذلك أرسى أساس الروابط بين سكوتلندا وفرنسا التي استمرت حتى أيام ماري ملكة السكوتلنديين في القرن السادس عشر، وبرهن أدولف أوف ناسو، حليف ادوارد، أنه قليل النفع، وأعظم أهمية منه كان كونت فلاندرز، الذي رأى في التحالف الانكليزي فرصة لصد هجوم فرنسي ممكن، واستمرت الحرب لعدة سنوات، ومالبت أن أنهكت المصادر المالية للفريقين المتصارعين، ولجأ الفريقان وهما في حالة يأس إلى فرض الضرائب على رجال الدين في ممالكهم المحترمة، وجرتها هذه السياسة الى صراع مع البابا بونيفيس الثامن.

الخلاف مع بونيفيس الثامن

شعر بونيفيس الثامن عندما أصبح بابا، بعد استقالة سيلستين الخامس بأنه مدعو إلى إعادة البابوية إلى سالف قوتها ومجدها الذي تمتعت به في ظل حكم إنوسنت الثالث، عندما عبر كل رأس متوج في الغرب المسيحي عن خضوعه إلى ذلك البابا القوي، وكان بونيفيس، وهو ما يزال كاردينالا، قد اصطدم وتخاصم مع اثنين من الكرادلة من أسره كولونا Colonna ، وهما جيمس وبيتر، وكانا قد أنكرا صحة انتخابه، وبناء عليه جردا من منصبيهما وحرما كنسيا، وكان بونيفيس، مثله مثل أسلافه، يأمل بقيام حملة صليبية يتولاها العالم المسيحي المتحد، وعمل في سنة ١٢٩٥ في سبيل إنهاء الحرب فيما بين ادوارد وفيليب عن طريق إعلان هدنة، الأمر الذي تجاهله الفريقان، ولهذا أصدر بونيفيس مرسوم Clericis Laicos (شباط ١٢٩٦) حرم فيه على العلمانيين

فرض الضرائب على رجال الدين.

ومن حيث الواقع النظري كان الافراد من اللاهوتيين مع ممتلكاتهم معفيين من المحاكمات العلمانية، ومن الضرائب، وفي الحقيقة سمح البابا في عدد كبير من المناسبات للسلطات العلمانية بفرض ضرائب على رجال الدين في أيام الطوارئ، وقيام التاج بجبايتها، وكانت هذه المبالغ بعيدة عن مقاصدهم الأصيل، ولقد قام كل من ادوارد وفيليب بفرض ضرائب ثقيلة على رجال الدين المحليين دون الحصول على إذن بابوي، وقد وجد المحامون البارعون مع وزراء المال طرقاً لتمويه هذه الضرائب من أجل تجنب الصدام مع حرفية القانون.

وعدّ بونيفيس — الذي كان جيد المعرفة بشرعية القوانين — هذه الضرائب غير عادلة، وأنها تتولى سلب الكنيسة، وقرر إيقاف هذه الممارسة، ولم يجرم المرسوم جميع الضرائب من هذا النوع، لكنه وضع شرطاً أساسياً هو الحصول المسبق على الموافقة البابوية، وجرى تحريم فرض الضرائب غير الموافق عليها من قبل البابا، على رجال الدين، وأرفق ذلك بتهديد الحرمان الكنسي وبفرضه على كل من الدافع والجابي، وجرى بشكل محدد وواضح منع جميع الأساقفة ورجال الدين من دفع مثل هذا النوع من الضرائب، مهما كان اللون الذي تموهت به.

وكانت النتيجة واضحة، هل كانت الدولة الوطنية ذات سيادة؟ وهل يمكن للبابوية المنتصرة في صراعها مع الامبراطورية تحقيق نصر مماثل على الدولة الوطنية الناهضة؟ وكان الخيار أمام ادوارد وفيليب إما الانحناء لإرادة البابا بونيفيس العجوز المتصلب، أو الرفض ومواجهة قوة يمكنها الافتخار بتحقيقها سلسلة لا يمكن مقارنتها من الانتصارات في صراعات مماثلة، وكانت النتيجة من حيث المبدأ محصلة قديمة، لكن خصم البابوية لم يكن هذه المرة الامبراطورية الاقطاعية الضعيفة، بل كانت الدولة الوطنية الصاعدة، المدركة تماماً لشخصيتها،

ويقودها ملك كان يعمل في سبيل الوصول إلى مقاصد عليا، وله مستشارين بارعين، ورجال فيهم مضاء، لا يمكنهم التردد في الوصول إلى غاياتهم، وعمل فيليب الرابع على حشد الرأي العام لتأييده، من خلال وساطة مجالس الأعيان العامة، والمجالس الأدنى مرتبة، ودعمت هذه الجهود بمناشير تطوعية كتبت في الغالب من قبل مجهولين، لا بد أن دوبروا كان من بين أبرز الممثلين.

ورد إدوارد بسرعة، فعندما عرض رئيس أساقفة كانتبري مرسوم Clericis Laicos وطالب بتطبيقه، وأقنع رجال الدين برفض الضرائب المفروضة، أمر إدوارد مسؤول العدالة لديه بأن يرفع بشكل رسمي حماية القانون المدني عن رجال الدين، وتجاهل الملك تهديد رئيس الأساقفة له بالحرمان الكنسي، ولم يكتف بذلك، بل طلب من المخاترة لديه الاستيلاء على بعض الممتلكات الكنسية العائدة لرئيس أساقفة كانتبري، وعندما تشكى رجال الدين إلى المحاكم، جرى إخبارهم أنه بناء على الأمر الذي صدر عن المسؤول الأعلى عن العدالة، ليس لهم مكان في المحكمة ولا يمكن الاستماع إليهم، وانحنى رجال الدين ورضخوا — مع استثناءات — إلى ما لا بد منه، وريح إدوارد الجولة الأولى.

وكانت ردات فعل فيليب أيضاً فورية وقوية، فقد أمر المحامين لديه بوضع مشروع أمرين، يمنع أولهما جميع الأجانب من دخول فرنسا، وبذلك منع أي مندوبين من قبل بونيفيس، قد يرسلهم لفرض مرسومه، وحظر الثاني تصدير أي ذهب أو فضة أو خيول، أو مؤن، أو ذخائر حربية من دون الحصول على إذن حربي مكتوب، واستهدف الحظر على الأعتدة والمؤن إنكلترا، وسدد منع تصدير المعادن الثقيلة ضربة شديدة إلى الموارد المالية للبابوية، التي كانت فرنسا مصدراً هاماً لها.

وواجه بونيفيس حزب كولونا القوي في روما، ووجدت انكلترا غير الصديقة في الخارج، أنه عملاً سياسياً غير مفيد القيام بتشجيع معارضة ملك فرنسا الحازمة، هذا الملك الذي كان مدعوماً من قبل عدد كبير من رجال الدين الفرنسيين، وبعد مراسلات حادة مخفقة مع فيليب، أصدر البابا مرسوم *Inefabilis amor* (٢٥ - ايلول ١٢٩٦) اعترف فيه بمشاعر الصداقة العظيمة نحو فرنسا، وأعلن أنه ليس لديه اعتراض على فرض الضرائب على رجال الدين أثناء الطوارئ الوطنية، وذلك إذا ما تم الحصول على موافقته أولاً، وأعقب هذا تنازل آخر ورد في مرسوم *Romana mater* (٧ شباط ١٢٩٧) الذي أبطل مرسوم *Clericis laicos* بالسماح بتقديم هبات تطوعية من قبل رجال الدين إلى الملك قبل الحصول على الموافقة البابوية، وجاء التنازل الأخير في مرسوم *Etsi de statu* (٣١ تموز ١٢٩٧) الذي أعطى فيليب الحق في تقرير وجود طوارئ وطنية تسوغ فرض ضرائب على رجال الدين دون الحصول على موافقة سلفية من البابا، وجاءت خطوة مصالحة أخرى بتطويب الملك لويس التاسع، جد فيليب الرابع (١١ - آب ١٢٩٧).

وبهذه التنازلات أصبح فيليب أكثر انفتاحاً نحو الجهود التي تولاها بونيفيس للتوسط في الحرب مع ادوارد، وحرص المتصارعان على عد الوسيط الحكم بينهما، أنه شخص بلا منصب وأنه هو بينيديتو كايثاني *Benedetto caetani* وليس البابا بونيفيس الثامن، ووضعاً أخيراً حداً للحرب بينهما وأنهياها في سنة ١٢٩٩.

وكان كل شيء على السطح نقيماً، لكن كانت هناك عاصفة هوجاء تختمر وتشكل، ذلك أن المشكلة الأساسية المتعلقة بالسيادة، وهي نقطة الخلاف الأولى بين فيليب وبونيفيس كانت ماتزال معلقة دونها حل، ولقد رحب فيليب بالكاردينالين كولونا، اللذين نفاهما بونيفيس، ولقد

توليا نشر مختلف حكايات القذف والنيل من البابا، واحتجا ضد قانونية انتخابه، وطالبا بعنف بعقد مجمع كنسي للحكم عليه، وانتقم في الوقت نفسه فيليب لنفسه من كونت فلاندرز، بتأمين اعتقاله شخصياً عن طريق الخيانة، وبناء عليه أعلن أن الاقطاع يخص العرش (١٣٠٠)، وقام بعد ذلك بزيارة المنطقة المتملكة حديثاً للمرة الأولى، وازداد نهمه وارتفع شرهه لدى رؤية الثروات والأبهة التي عرضها البرجوازيون الفلمنك الأثرياء مع زوجاتهم، وقد وجد هناك مصدراً غير مستغل حتى الآن لتأمين الموارد للخزينة الملكية.

ومهما كانت الشكوك التي ساورت نفس بونيفيس بشأن قدرته على التعامل مع الملكين الحروين، فقد استطاع ضبط الأمور والحصول على التهدئة. من خلال النجاح الكبير الذي تحقّق في الاحتفالات الدينية التي تمت في سنة ١٣٠٠، وأعطى تدفق آلاف الحجّاج على المدينة الخالدة لنيل المباركة البابوية، بونيفيس الانطباع بأنه يتمتع بالتأييد الجماعي للعالم الكاثوليكي، وكان لكميات الهبات الهائلة التي انصبت فوق المذابح الرومانية، الفضل بدعم الخزينة البابوية، وهكذا بات، إذا كان المتوجب وضع حد لقوى الملوك الوطنيين، فالآن حل الوقت الموائم.

ويبدو أن فيليب قد اعتمد على التعديلات المتنوعة لمرسوم Clericis Laicos، وبذلك تشجع ومن ثم لم تتوفر لديه نية في إيقاف سياسة بفرض الضرائب على رجال الدين، وعندما تشكى رجال الدين الفرنسيون إلى روما، قرر بونيفيس العمل، لكنه أثار أن يرسل في البداية رسالة انذار إلى الملك، وقد وقع اختياره على أن يكون حامل الرسالة غير المرحب بها، شخصية كانت هي الأسوأ سمعة، لقد اختار برنارد ساسيت Saisset، أسقف بامير Pamiers، وكان عدواً لدوداً لفيليب، وجرى في سنة ١٣٠١ اعتقال برنارد، وألقي به في السجن

بتهمة الخيانة.

وكان هذا بالنسبة لبونيفيس إهانة لا يمكن التغاضي عنها، وقد أصدر في الرابع والخامس من كانون الأول ثلاثة مراسيم، وكان المرسوم الأول هو *Salvatos mundi*، وقد ألغى فيه التعديلات التي تناولت مرسوم *Clericislaicor*، وكان المرسوم الثاني وهو الأهم هو مرسوم *Ausculta Fili*، وفيه تم التأكيد فيه بعبارات واضحة على أن سيادة البابا هي سيادة عالمية على جميع الملوك والممالك، وأطلق عبارة هرطقي على كل واحد يغامر بالرفض، وأضاف ثبناً عدد فيه كثيراً من الاعتداءات التي اقترفها فيليب ضد الكنيسة، واستدعى المرسوم الثالث الأساقفة الفرنسيين إلى الاجتماع والتشاور في روما، لإيجاد الوسائل لاصلاح كل من ملك ومملكة فرنسا ووجهت الدعوة إلى فيليب للحضور.

وقابل فيليب هذا التحدي بمنع رجال الدين الفرنسيين من الذهاب إلى روما، وذلك عن طريق تحديد الحظر على توجيه الأموال إلى روما، ولكي يتصدى لمؤثرات اقتراح عقد المجمع الكنسي في روما، توجه نحو ارضاء العواطف الفرنسية بدعوة مجلس الاعيان العام إلى الاجتماع، وجرى توزيع مناشير هوجم فيها بونيفيس بين النواب، واستمع هؤلاء إلى خطب رنانة ألقاها عملاء فيليب، ويبدو أن جهوداً واعية قد بذلت لتجاوز مرسوم *Deum Time* المزيف، والقول بأنه أصيل، فقد تولى بيير فلوت *Flotte*، الذي كان واحداً من كبار مستشاري فيليب، قراءة الوثيقة المزيفة إلى مجلس الأعيان.

وكانت محصلات مؤثرات هذه الجهود لصالح فيليب إلى أبعد الحدود، فقد تبنى النبلاء وأعيان الدرجة الثالثة قرارات حماسية أيدوا فيها القضية الملكية، ووجه رجال الدين رسالة إلى بونيفيس، لصالح فيليب، يرجون فيها البابا أن يقوم، في سبيل الصالح العام والوئام،

بسحب الدعوة للمؤتمر في روما، ثم كان أن نزلت مصيبة بفيليب من جهة غير متوقعة، فقد وصلت المكوس المالية التي فرضها على البورجوازية الفلمنكية إلى حد ما عاد من الممكن تحمله، ولذلك قام الفلمنكيون في صيف عام ١٣٠٢ بالثورة، ولكي يسحق هذه الثورة بعث فيليب بقوة مرعبة من الفرسان الاقطاعيين، ورفض رجال المدينة الشجعان الانهزام لدى اقتراب الفرسان، وسحبوا صف قتالهم الموجود عند كورتراي Courtrai إلى ما وراء المستنقع، وفي ١١ تموز حمل الفرسان وفقاً لعاداتهم على صف أهل المدينة، وغرقت خيولهم وغاصت في المستنقع، واضطر الفرسان إلى الترحل، وبهذا تمكن رجال المدينة بكل سهولة من تمزيق أعدائهم الغائضين بالوحل.

وكانت هذه الهزيمة الماحقة، وهي أولى الهزائم التي تلقاها فيليب، بالفعل انتكاسة خطيرة، واحتاج فيليب إلى وقت طويل لتعويض الجيش المباد في كورتراي، وكان بيرفلوت، الذي كان أفضل مستشارية وأعظمهم قدرة بين القتلى، وبات هكذا السلم الصعب المعقود مع ادوارد الأول من الممكن خرقه في أي لحظة، وألقى بونيفيس قفاز التحدي، وبات جاهزاً للعمل في كل اتجاه لنيل المنافع.

واجتمع المجمع الكنسي الذي دعا بونيفيس إليه في ٣٠ — تشرين أول لعام ١٣٠٢، وعلى الرغم من الحظر الذي فرضه فيليب، كان عدد كبير وهام من الأساقفة الفرنسيين بين الحضور، وصادق المجمع على اصدار مرسومين، أمر أولهما باصدار الحرمان الكنسي بحق كل واحد يقوم بالتدخل مع الأشخاص الذاهبين إلى روما أو الآيين منها، وكان المرسوم الآخر هو مرسوم unam Sanctam الشهير وتاريخه ١٨ — تشرين الثاني ١٣٠٢، وهو الذي أرسى حق الادعاء البابوي بالسلطة الروحية والدينيوية، بعبارات واضحة تمام الوضوح، ولم يحدث من قبل قط مثلها حدث الآن في عرض الموقف البابوي بمثل هذا الوضوح

اللغوي، «ولهذا فإن كل من السيفين الروحي والديني، هما تحت سلطة الكنيسة وفي يدها.... زيادة على هذا، من الضروري أن يكون أحد السيفين تحت السيف الآخر، وأن تكون السلطة الدنيوية تحت السلطة الروحية.... ولهذا نحن نعلن، ونقول، ونؤكد على أن الخضوع من قبل كل انسان إلى أسقف روما هو كله ضروري من أجل خلاصه»، وفي نيسان ١٣٠٣، أخبر بونيفيس فيليب بأنه قد حرم كنسياً لمنعه رجال الدين الفرنسيين من حضور المجمع.

وعند الوصول إلى هذه الحالة جرى ابداع استراتيجية في البلاط الفرنسي، وهذه الاستراتيجية تشير إلى أن الملكية قررت أن لاترك حجراً إلاً وتقلبه في جهودها لإلغاء تأثير المراسيم البابوية، ولاندرى في عقل من جرى تصميم الخطة، ولعل ذلك كان في عقل فيليب نفسه، لابل من المرجح أكثر في عقل وليم أوف نوغاريت، وقضت الخطة الأصلية باعتقال بونيفيس، وأن يقوم النائب البابوي بالدعوة إلى عقد مجمع يتولى محاكمة السجين، وبما أن المتأمرين كانوا واعين تماماً ومدركين لأهمية تأييد الطبقات الثلاث في فرنسا، جرى تعديل الخطة، إلى واحدة يرغب فيها بونيفيس نفسه على الدعوة إلى عقد مجمع، وهذه سابقة كان من الممكن أن تنال تأييد رجال الدين الفرنسيين، وكذلك الطبقات العلمانية، لأنه كان من الممكن أن يتردد رجال الدين في الاعتراف بمجمع يدعو إليه انسان آخر لا يحمل اللقب البابوي، وبدأ العمل بالمؤامرة في آذار ١٣٠٣، وللحيلولة دون أي تدخل من قبل ادوارد الأول، جرى إبرام معاهدة معه في ٢٠ - أيار أعاد إليه بموجبها فيليب أكويتين، وكانت الخطوة الثانية هي تحضير الرأي العام، ودشن هذا في اجتماع باريس لمجلس مستشاري الدولة في ١٢ أيار، ففيه ألق نوغاريت بهجوم حاد على بونيفيس، وقد تبني الحجة التي أعلنها المنفيان من أسرة كولونا، في أن بونيفيس، لم يكن بابا حقيقياً، لأن لقبه

يعتمد على قانونية استقالة سيلستين الخامس، وكانت النظرية تقول بأن أصوات الكرادلة أثناء الانتخابات البابوية تملئها بالعادة الروح القدس، وعلى هذا كان من معاني استقالة البابا القول بأن الروح القدس قد أخطأت، وهذا وضع لاهوتي لا يمكن تقبله.

وتم التوسع بالاتجاه نحو الرأي العام خلال اجتماع عقد في اللوفر في ١٣ - حزيران ١٣٠٣، وجرى أمام هذا الاجتماع الموسع والجمهور العريض تجديد الهجوم على بونيفيس، وقد قرأ بلازيان لائحة فيها تسعاً وعشرين تهمة مؤكدة ضد البابا، وأعلن فيليب عن قناعته شخصياً بضرورة عقد مجمع عام، وتبنى رجال الدين قراراً أعلنوا فيه عن تأييدهم للعرش ضد جميع الخصوم، وأيدوا أيضاً مطلب عقد المجمع.

ولم يكن بونيفيس خصماً جباناً على الرغم من تقدمه بالسن، وجاء رده في عقد مجلس في أناني Anagni في آب، أصر فيه بشكل مهيب على براءته من التهم التسع والعشرين التي أثبتت ضده بشكل عدواني، من قبل الفرنسيين، وهناك جرى الاعلان أنه يمكن فقط للبابا الشرعي أن يدعو إلى عقد مجمع عام، وتم توجيه الانذار إلى فيليب أنه ما لم يتب ويقطع عن أعمال عصيانه، سوف يتحمل أقصى عقوبة من الكنيسة.

ووصل بالوقت نفسه نوغاريت، مسلحاً برسالة اعتماد من فيليب ومزوداً بمبالغ ضخمة، إلى إيطاليا، حيث شكل تجمعاً مع حزب كولونا، وفي ٧ - إيلول ١٣٠٣، دخل المتآمرون إلى أناني، بمساعدة أعضاء من الحرس البابوي تمت رشوتهم، وشقوا طريقهم إلى حجرة النوم البابوية، ورفض البابا المسن التنازل وقبول مطالبهم، وأصر على موقفه، وفي اليوم الثالث جرى طرد المتآمرين من قبل سكان المدينة.

وصحيح أن حياة البابا حفظت، لقد برهنت صدمه الهجوم أنها كبيرة جداً بالنسبة إلى هذا البابا العجوز، ولقد وجد هذا الرجل الذي

خيل إليه قبل ثلاث سنوات أن العالم راعع عند قدميه، نفسه مطوقاً من قبل الأعداء، فقد تدمرت معنوياته، وفقد أعصابه والقدرة على التحمل، وهنا التمس المساعدة من أسرة الكاردينال أورسيني Orsini في روما، وهكذا جرت مرافقته إلى هناك، ولقد كان متعطشاً للانتقام من فيليب، وسببت جهوده في سبيل الحصول على حلفاء لتحقيق هذه الغاية معاداة أسرة الأورسيني، فاحتفظ هؤلاء به سجيناً بشكل فعلي في الفاتيكان، وهناك في الفاتيكان لفظ أنفاسه الأخيرة في ١٢ تشرين أول ١٣٠٣.

وترك موت بونيفيس البابوية في وضع حرج، فهل سيكون هناك خلاف طويل في الاجتماع السري للكرادلة، وهل سيعطي هذا فيليب الفرصة لتقوية أوضاعه من دون تدخل؟ وهل سينتخب الكرادلة رجلاً سوف يتابع الأخذ بالسياسة المتصلبة لبونيفيس التي تبرهن على أنها مأساوية جداً، أم أنهم سوف يختارون واحداً سوف يتبع سياسة المصالحة، ويتولى التسوية مع فيليب؟ وعمل مجلس الكرادلة بسرعة، واختاروا في ٢٢- تشرين الأول الرجل صاحب الأخلاق اللطيفة، والذي كان القائد العام لطائفة الدومنيكان، وكان البابا الجديد هو الحادي عشر الذي اتخذ لنفسه لقب بندكت، ولعله رغب من وراء ذلك أن يقدم إيماءة بأنه يخطط لاتباع سياسة مصالحة.

وتركت المحاولة المخففة لاعتقال بونيفيس نوغاريت في وضع خطير، فقد صدر بحقه حرمان كنسي فرضته الواقعة بسبب محاربتة البابا شخصياً، ولم يكن وضع فيليب بالأحسن، فهو كان مايزال محروماً كنسياً، كما ما برحت مراسيم بونيفيس المتعددة ضده قائمة وقوية، ولكي يمارس الفرنسيون الضغط على بندكت الحادي عشر، تبناوا استراتيجية تجديدهم ضد بونيفيس، وهي التهم التي رفعت في حزيران المنصرم، وأصروا على أن حادثة أناني قد نتجت عن تصلب بونيفيس ورفضه المستمر للمطلب القانوني لعقد المجمع، وبات الحال إذا ما أمكن اقناع

بندكت بالقيام بالدعوة إلى مجمع، فلا بد من الاستماع للقضايا والتهم المرفوعة ضد بونيفيس، وإذا ما تمكن الفرنسيون من البرهنة على صحة التهم التي رفعوها، فهذا كان سيعني تبرئة كاملة لكل من فيليب ونوغاريت، الذي سوف يكون في وضع انسان مسيحي جيد، قد حاول تحريك آية الكنيسة ضد مغتصب شرير، وكان من معاني إدانة بونيفيس إلغاء جميع قراراته ومراسيمه، وكون بونيفيس كان قد توفي ودفن، ما كان له ليغير المسألة القانونية ذات الشأن، وهكذا بدأت الحملة على ذكرى بونيفيس.

وكانت خطوة فيليب الأولى ضرورية لتدبير مصالحة مع البابا الجديد، بندكت الحادي عشر، ومن أجل هذا الهدف عين فيليب بعثة مؤلفة من أربعة أشخاص، كان نوغاريت فيها، هو العضو الرابع، وأعطى إلى أعضاء هذه البعثة لائحتين من التعليقات، وكانت أول التعليقات التي أعطيت إلى الأعضاء جميعاً باستثناء نوغاريت هي أن «يتلقوا» ولا «يطلبوا» التحليل للملك من كل حرمان كنسي قد فرض عليه في الماضي لأي سبب كان، وكانت هذه مسألة بسيطة لانتحاج إلى عقل نوغاريت البارع، وخولهم التباحث بشأن جميع القضايا القائمة فيما بين فيليب وبونيفيس، ذلك أن مهمة نوغاريت الماكرة كانت الحاجة ماسة إليها، بعد وفاة بيير فلوت، الذي كان أكثر مستشاري فيليب موثوقة.

واستجاب بندكت بسرعة للمطلب الأول، ففي ٢٥ — آذار ١٣٠٤ جرى تحليل الملك وأسرته بشكل رسمي من كل حرمان موجود، وكان الآن بندكت حراً للتباحث مع فيليب دون مضايقة لنفسه واحراج بالتعامل مع شخص محروم كنسياً، وعندما ظهر نوغاريت أمام البابا، رفض بندكت الاعتراف به، بما أنه كان تحت الحرمان، وقام نوغاريت بالطلب من خلال زملائه منحه «تحليل مشروط»، وجدد طلبه من أجل

عقد مجمع للحكم على بونيفيس، ولكي يتجنب بندكت المضايقة بالقيام بالحكم على سلفه، قدم تنازلات اضافية، فقد ألغى في سلسلة من المراسيم أصدرها في ١٨ - نيسان، و١٣ - أيار، مراسيم بونيفيس ضد الجامعات الفرنسية والكنائس، ومحا جميع المراسيم القائمة ضد حقوق الملك الفرنسي، وحل الأساقفة الفرنسيين، الذين أطاعوا أوامر فيليب بعدم حضور المجمع الروماني لعام ١٣٠٢، وعلن الحرمان الذي أعلنه بونيفيس ضد ليون وبامير، وبالإضافة إلى ذلك منح فيليب العشر لمدة عامين، مع حق التعيين في الوظائف الكنسية التي ستشغر في السنوات الثلاث المقبلة.

وبعدما تنازل بندكت لفيليب واستجاب لكل مطالبه، قرر أن يجعل مثلاً من الذين شاركوا شخصياً في عملية الاقتحام في أناني، فقد أصدر في ٧ حزيران ١٣٠٤ مرسوم *Flagitiosum scelus* ، الذي أدانهم فيه بجميع العبارات القاسية جداً، ووضعهم تحت الحرمان، وجرى استدعاء المجرمين للظهور أمامه، لسماع الحكم بحقهم.

ما الذي كان لفيليب أن يفعله؟ فقد كان نصره الشخصي تقريباً كاملاً، وكان نوغاريت الوكيل الملكي الهام، الوحيد الذي ترك خارج التسوية، فهل سيفسد الملك التسوية التي صنعها مع البابوية باستمراره في دعم نوغاريت، أم أنه سيرميه إلى الذئاب؟ وعمل فيليب بسرعة قصوى وبشكل حاسم، فقد جرى الاحتفاظ بنوغاريت في الخدمة، ومنح جائزة مالية كبيرة «من أجل خدماته المخلصة في قضايا ذات أهمية قصوى للعرش وللدولة»، وقبل أن يتمكن بندكت من اتخاذ المزيد من الخطوات الاجرائية ضد نوغاريت والمتورطين معه، توفي في ٢٧ تموز ١٣٠٤، كما يقال لأكله كميات كبيرة من التين الناضج.

وكان من الممكن تأمين المزيد من المنافع بانتخاب بابا مطواع للارادة الفرنسية الملكية، وكان هذا في ذهن فيليب، فقام بممارسة الضغط على

الكرادلة الفرنسيين، وقام الاثنان من أسرة كولونا بممارسة بعض التأثير على زملائهما المتقدمين، وذلك على الرغم من عدم اعادتها بعد إلى مجلس الكرادلة، وكان المؤيدون لتوجيهات بونيفيس الثامن كثر إلى حد قدرتهم على منع الاختيار الفرنسي، لكنهم لم يكونوا قادرين فيما بينهم على الاتفاق حول مرشح، ومضى شهر تلو شهر بدون أمل في الوصول إلى اتفاق، وأبدع أخيراً الكاردينال نابليون أورسيني خطة، اتفق بموجبها عشرة من الكرادلة على اختيار واحد من ثلاثة مرشحين يتولى تسميته، والذي جرت تسميته من بين هؤلاء كان برتراند دي غوت Got، رئيس أساقفة بوردو، وكان على هذا من الرعايا الانكليز، وكان يدين بترفيعه إلى بونيفيس الثامن، وكان قد تحاصم مع أخي فيليب، شارل أوف فالويس Valois، وقد حضر المجمع الروماني لعام ١٣٠٢، على الرغم من رغبات الملك.

ثم ما الذي تبع هذا ليس واضحاً تمام الوضوح، وقد جاءت من عند فيلاني Villani حكاية ذكرت أن واحداً من عملاء فيليب أسرع متوجهاً نحو الشمال حاملاً الأخبار، وأن فيليب قد عقد اجتماعاً سرياً مع برتراند وعده فيه بالبابوية مقابل بعض التعهدات المحددة، وبعض الخدمات الأخرى سيكشف عنها فيما بعد، هذا وهناك حاجة إلى بينات مقنعة لحكاية فيلاني هذه، وفي الحقيقة هناك بعض الأدلة التي تقول العكس، إنما مما لاشك فيه أن برتراند يدين بانتخابه إلى نفوذ الملك، وكان فيليب رجلاً دلبياً، وكان من غير الممكن له شخصياً أن يقدم مثل هذا التأييد، من دون نوع من التفاهم معه، ومهما كانت حقائق الأمور، لقد جرى اختيار برتراند بابا في ٥ - حزيران ١٣٠٥، وقد اتخذ لنفسه اسم كليمنت الخامس، وعلى الرغم من هلع الكرادلة الطليان الكامل، دعا مجلس الكرادلة إلى الاجتماع في ليون من أجل تنسيجه (١٤ - تشرين الثاني ١٣٠٥) واتخذ أخيراً سكناً له في أفينون في عام

١٣٠٩، وهكذا بدأ السبي البابلي.

قضية الداوية

عندما وصلت مشكلة بونيفيس إلى هذه المحطة، تمازجت مع الهجوم على طائفة الداوية، وكانت علاقات فيليب بالداوية علاقات حميمة حتى سنة ١٣٠٥، وكان مقرهم الحصين في باريس قد اتخذ مستودعاً للموارد الملكية المالية حتى بعد تأسيس الخزانة الملكية في اللوفر، وجرت العادة لدى مواجهة الملك الفرنسي لمشاكل مالية ومصاعب (وكانت هذه هي الحالة الطبيعية للملكية الفرنسية) اقراضه المال، وقد أيد الداوية الملك فيليب ودعموه في صراعه مع بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٢م، لابل إنه عندما سادت الفوضى العامة، اتخذ لنفسه ملاذاً في احدى قلاع الداوية.

لكن لماذا انقلب فجأة ضدهم، هذا أمر ليس من السهل تأكيده، ومن الصعب أن نصدق أن انسانا امتلك سمات فيليب وعبقريته وفطنته كان من الممكن أن يصدق الحكايات التي أشيعت حول الداوية، فيما يتعلق بانحطاطهم الخلقي، لابل فيما يتعلق باتهامهم بالهرطقة، ومهما يكن الأمر، لقد أمسك الملك بلهفة بمثل هذه الاشاعات، واتخذها ذريعة من أجل تدميرهم، ويتوصل الانسان إلى نتيجة أنه عندما انتشرت هذه الاشاعات المشوهة للسمعة والتأمرية، ووصلت إلى الانتباه المباشر، إما انتباه فيليب أو انتباه واحد من العقول اليقظة بين مستشاريه، رأى الفرصة المناسبة لربح التاج مالياً بمهاجمة هذه الطائفة الشاذة القابلة للمهاجمة، وفي الوقت نفسه إزالة عقبة كبيرة في وجه السلطة الملكية المطلقة، ولم يكن من الممكن من حيث المنطلقات للقيام بمثل هذا الهجوم تقديم سبب قانوني عادي من التاج، فذلك لم يكن له من وزن، وكان ذلك ممكناً فقط كاثوليكيًا عن طريق البابا، فهنا كان من الممكن لفيليب أن يأمل بشيء من النجاح لحملة ضد مؤسسة بدت بالمعايير المعاصرة آنذاك معصومة تماماً.

وتم إعداد المؤامرة ضد الداوية وتأصل ذلك في سنة ١٣٠٥، حيث يقال، كما يبدو، بأن فرداً مجهولاً اسمه اسكوي دي فلويرانو أوف بيزير Esquieu de Floyrano of Beziers قد قدم إلى جيمس الثاني صاحب أراغون بعض البراهين حول ممارسات شاذة يمارسها الداوية، وكان يأمل من وراء ذلك الإخبار نيل جائزة مالية، وقد برهن جيمس الثاني على حذره، فذهب اسكوي إلى فرنسا حيث قدم الصراع بين الملك والبابوية فرصة أفضل له، وحملت هنا اتهاماته لتوضع أمام الملك فيليب الرابع، الذي عمل هو ونوغاريت على تحويلهم لصالح العرش.

وكان كليمنت الخامس، مثله مثل بابوات ذلك العصر، مهتماً في تجديد مشاريع الحروب الصليبية، ففي خلال إقامته في ليون من أجل الترويج جرى التباحث حول حملة صليبية بينه وبين فيليب، وحمل الملك معه الاشاعات التي سمعها، وكان من البديهي إذا أريد بالفعل التخطيط لحملة صليبية، من الضروري التشاور مع المنظمات العسكرية، وبناء عليه استدعى كليمنت للاجتماع به في سنة ١٣٠٦ المقدم الأعلى للاستبارية مع جاك دي مولي مقدم طائفة الداوية، ولعقد مؤتمر في بواتيه، وفي نيسان ١٣٠٧، وضع فيليب الاتهامات ضد الداوية أمام المجلس الملكي، بهدف نيل تأييد أعضاء المجلس في حملة تشن ضد الطائفة.

وفي الوقت الذي كان فيليب فيه متظاهراً بالبحث في مسألة الحملة الصليبية مع كليمنت ودي مولي، ويعبر عن اهتمامه بشأن الاشاعات المتعلقة بالطائفة، كان نوغاريت يعد الأرضية من أجل هجوم مكشوف ضد الداوية، وكان أن يقوم التاج بالمبادرة في تقديم الاتهامات، يمكن أن يعرض فيليب لاتهامات مضادة، من أنه كان يقوم بعمل تأمري، ولهذا قام نوغاريت في ١٣٠٥ بهدوء بالإعداد لاعتقال اثنين من أعضاء الداوية السالفين، وذلك بدون أدنى ضجة، وكان من المفترض تقديم

هذين الداوين السالفين في اللحظة المناسبة للشهادة، وبذلك يوفران على فيليب حرج المبادرة بتقديم التهم.

ومارس فيليب في صيف ١٣٠٧ المزيد من الضغط على البابا ليتخذ اجراءً في قضية الداوية، وكان الملك منذ وقت انتخاب كليمنت يطالب أن يقوم البابا باستدعاء مجمع كنسي عام ليتولى محاكمة بونيفيس الثامن المتوفى، بتهم كان نوغاريت مع رجال الملك الآخرين يقومون بإعلانها ونشرها على رؤوس الأشهاد، هذا ولم يكن كليمنت قط قوي الارادة جداً، ولم يكن أيضاً بصحة جيدة، ولهذا أمل بتجنب هذا الوضع المرحج بتقديم المزيد من التنازلات لفيليب، وبناء عليه وافق في آب على البحث في قضية الداوية، وبذلك ربح فيليب نقطته الأولى.

وكان القيام بالبحث والتقصي بشكل بطيء ومنظم من قبل البابوية لايلبي الرغبات الملكية، وكانت التهم الموجهة للداوية تتضمن شكوكاً بالهرطقة، الأمر الذي يعني احضار المتهم أمام محكمة للتفتيش، ولم تكن محاكم التفتيش ذات حظوة في فرنسا، وكان فيليب نفسه قد نال بعض الشعبية باصداره مرسوماً في كانون الثاني سنة ١٣٠٤، عين بموجبه لجنة ملكية توجب عليها فحص قضايا جميع المسجونين من قبل محكمة التفتيش، وتحرير كل من توفرت أرضية كافية لتحريره، وكان إذا ماتضمنت الشكوى ضد طائفة الداوية وأفرادها تهمة الهرطقة، فان الاجراء القانوني يتوجب أن يكون تحت ادارة محكمة التفتيش التي كان على رأسها همبرت كاهن فيليب، وكان من المؤكد أن واجب الملك المسيحي القيام بإزالة الهرطقة من ممالكه، ويمكن للانسان أن يتخيل رؤية فيليب ونوغاريت وهما يضحكان مرحاً باللسان وبالتعابير، لتمكنهما بوسائلهما وخداعهما من تحويل الاجراءات القضائية للعصور الوسطى لصالح مقاصدهما المظلمة.

وأخذت الاشاعات تنتشر وتقول بأن أعضاء طائفة الداوية سوف

يمثلون أمام محاكم التفتيش، وهكذا قيل بأن عدداً قليلاً من الداوية قد بادروا إلى الفرار، ولهذا بات من الضروري اتخاذ إجراء سريع، وجرى ترفيع نوغاريت إلى مرتبة الحافظ للختم العظيم، وذلك من أجل هذا المقصد، وقد أدى دوره بشكل جيد، وختم بتاريخ ٢٢ - أيلول ١٣٠٧ صياغة (فعلياً قبل اسبوع) تعليمات وزعت على جميع السلطات المسؤولة، قضت باعتقال جميع أفراد الداوية في فرنسا، ووقعت الضربة في الصباح الباكر ليوم ١٤ تشرين أول، وكان هناك قليل من الفارين، ولم تتوفر أعمال مقاومة، وسجن المعتقلون من الداوية في سجون منفردة مغلقة، دون توفر الفرصة للتشاور مع بعضهم بعضاً أو مع رؤسائهم، وكان من بين المعتقلين دي مولي، المقدم الأعلى، الذي كان قبل يومين بصحبة فيليب، حاضراً مائماً أقيم من أجل زوجة شارل أوف فالْيوس.

وأوجدت المفاجأة في العمل وأثارت دقته غضباً عاماً، ولكي يطمئن الجمهور الشعبي، ومن أجل إثارة مواقف معادية ضد الداوية، دعا فيليب في اليوم نفسه الذي جرى فيه الاعتقال إلى اجتماع في نوتردام ضم أعيان رجال الكهنوت والعلمانيين، حيث جرى استعراض المشكلة كلها، وتم الاعلان عن التهم، وعقد في اليوم التالي اجتماع مماثل في اللوفر كان أكثر شعبية بشخصيات الحضور.

وكان استخدام التعذيب لانتزاع الاعترافات، في أثناء محاكمات الهرطقة أمراً قانونياً تماماً، وهكذا توجب على ذوي الحظ السيء من الداوية، الذين كانوا مضرب المثل بأنفتهم وبتكبرهم، أن يخضعوا إلى آلام مجريات محكمة التفتيش، وفي ظل هذه الضغوط، أو بمجرد التهديد باستخدامها اعترفوا بكل نوع من أنواع الجرائم، من ذلك مثلاً أنه لدى قبول المرشح الجديد كان عليه إنكار المسيح ثلاث مرات، وأن يبصق على الصليب، كما كان العضو القديم يتعانق مع المرشح الجديد بشكل

غير لائق، يضاف إلى هذا كان الحزام الذي يلبسونه كجزء من لباسهم النظامي، مكرساً للكفر، لأنه كان يلف حول رأس صنم كانوا يتولون عبادته في بيعهم، ومعنى هذا كان رهبان الداوية لا يؤمنون بقداسة المذبح، وكان مطلوباً منهم جميعاً الحصول على الأملاك لصالح الطائفة بأية وسيلة من الوسائل، عادلة أو ظالمة، وأعلن بعضهم البراءة شخصياً، ومع هذا اعترفوا بأن الانتهاكات المذكورة أعلاه كانت عامة وشأنها عادياً داخل الطائفة.

وكان كليمنت قد استبد به الرعب، ليس بسبب لائحة الانتهاكات، التي كان يعرفها من قبل من خلال مؤتمرات كان قد عقدها مع الملك، بل بسبب السرعة في استخدام السلطات المدنية وبشكل عنيف جداً ضد طائفة كانت من الناحية الشرعية تحت الاشراف القضائي للبابا، ولا شك أنه حين وافق مكرهاً على التحقيق مع الطائفة، لم يكن يتوقع مثل هذه الاجراءات القاسية جداً من قبل التاج، ولهذا علق في أوائل عام ١٣٠٨ أعمال محاكم التفتيش، ونقل المتهمين من الداوية ليكونوا تحت سلطانه القضائي المباشر، وأمر كذلك بنقل بعض الشخصيات الرفيعة من الداوية ليكونوا تحت حفظه الخاص في بواتييه، ولسوء حظ كليمنت، تعرضت استراتيجيته الأخيرة هذه إلى انتكاسة، فقد تمكن واحد من الداوية من الفرار من بواتييه في شباط، وبات إذا كان البابا عاجزاً عن الاحتفاظ بحفنة من رجال الداوية خلف الباب والقفل، فكيف له أن يسوغ مطلبة باعتقال المئات وسجنهم، وهم الذين كان فيليب ملقياً بهم في سجن لا أمل بالخلاص منه؟ وأمر كليمنت بسرعة بالبحث عن الفار، وقدم جائزة قدرها عشرة آلاف فلورين من أجل اعتقاله.

والآن وقد باتت قضية الداوية تحت الاشراف المباشر للبابوية، كانت الخطوة الثانية التي اتخذها فيليب هي توجيه استفسار إلى جامعة باريس،

سائلاً: تحديد صلاحيات السلطات المدنية في قضايا هرطقية صارخة، وسأل أيضاً عما إذا كان الجرم المعترف به من قبل الداوية يشمل امتيازاتهم اللاهوتية، وهل يجوز السماح للطائفة بالبقاء في حالة العثور على عدد ضئيل من أفرادها أبرياء في مقابل المئات الذين اعترفوا بجرمهم، وما الذي ينبغي فعله بالنسبة لممتلكاتهم، فهل يتوجب تكريسها لهدفها الأصيل، أي الأرض المقدسة، أو من الممكن في ظل الظروف القائمة مصادرتها من قبل السلطة العلمانية، وردت الجامعة برداً حذراً، حيث ذكّرت فيليب بأن طائفة الداوية كانت طائفة دينية، وهي على هذا تحت الاشراف القضائي اللاهوتي، أي أنه يمكن للسلطات المدنية في حالات الطوارئ اعتقال هرطقة، لكن مع النية بتسليمهم إلى محكمة لاهوتية، أي أن الاعترافات كلها تسوغ تحقيقاً داخل الطائفة نفسها، أي أن الذي ينبغي القيام به هو اتخاذ اجراءات للتأكد من أن الذين اعترفوا بالجرم لم يفسدوا الرهبان المحتملة براءتهم، وهذا يعني أنه بات من الضروري حراسة ممتلكات الطائفة، لضمان تطبيق الأهداف التي من أجلها كرست بالأصل.

وكان هذا كافياً بالنسبة إلى فيليب، ففي اليوم نفسه الذي تسلم فيه الجواب من الجامعة، وجه الملك الدعوة لاجتماع مجلسه العام الثاني للأعيان في تور في أيار ١٣٠٨، ومثلها كان عليه الحال بالنسبة لمجلس ١٣٠٢، جرى استدعاء هذا المجلس للاجتماع ليس من أجل تقديم النصيحة إلى الملك، ولا من أجل تأمين موارد مالية، بل كانت مهمة المجلس الآن أن يعمل بمثابة صوت دعائي عريض لتمجيد الملكية، التي هي المدافع عن الإيوان، ولحشد تأييد وطني من أجل الهجوم على الداوية، ومعلوماتنا عن مجريات أعمال الاجتماع ضئيلة، والذي نعرفه أن الطبقة الثالثة كانت حسنة التمثيل، وكان رجال الدين مكرهين بالمشاركة في الهجوم على طائفة دينية، لكنهم خافوا من معاداة الملك،

وكان عدد كبير منهم ممثلاً بالتفويض وبالنيابة، وأخير نوغاريت، الذي عمل وكيلاً لعدد من رجال الدين، الملك فيليب بأن المجلس قد أيد الموقف الملكي بالاجماع تقريباً.

وكان من بين أعضاء الطبقة الثالثة الذين كانوا حضوراً في تور، بير دوبوا، وكان قد صار أكبر جرأة، وذلك بتقدم السنوات، وقد أمسك بسرعة حقيقة أن أمل فيليب بالنجاح في قضية الداوية قائم في ارغام كليمنت، فكتب رسالة باللغة العامية بعنوان «احتجاج الشعب الفرنسي»، وكان صلب هذه الرسالة مجرد هجوم على كليمنت بسبب موقفه المعيق في قضية الداوية، وأشفع ذلك بنقد حاد لموقف المحاباة الذي اتخذه البابا، وهاجم في منشور آخر كتبه في السنة نفسها، حمل عنوان «قضية الداوية» طائفة الداوية بعبارات قاسية جداً، ودعا الملك لاتخاذ اجراءات شديدة جداً ضدهم.

ومن جديد تراجع كليمنت أمام الضغط، ففي اجتماع كنسي عام عقد في القصر الملكي في بواتيه يوم ٢٩ - أيار ١٣٠٨، بحضور الملك، وأعيان الكنيسة والدولة، جرى عرض الموقف الملكي بشكل رسمي ضد الداوية، وتولى عرضه بلازيان، ووقف نوغاريت المخطط الاستراتيجي الرئيسي في الخلف لأنه كان مايزال تحت الحرمان البابوي، واستعرض بلازيان القضية كلها، وأوضح أن فيليب كان مكرهاً في تصديق التهم، ولذلك اضطر لأن يطلب من محكمة التفتيش التحقيق بالقضية، وأعلن أن فيليب الذي هو الملك الأقوى على وجه الأرض، قد عمل بموجب دوافع سامية، ومقاصد عليا، فلقد كان واجبه المسيحي يملي عليه اتخاذ اجراءات ضد الطائفة، التي تبرهن على إجرامها بالاعترافات التي أداها أفرادها، وليست لديه نوايا نحو ممتلكات الداوية، بل تولى بكل بساطة المسؤولية حتى يتم التوصل إلى حل مناسب بشأنها، وختم بلازيان كلامه بتهديد مبطن لكليمنت، فيما

إذا تقاعس بالعمل، وعندما تولى كليمنت الرد، استعرض أخبار السمعة الجيدة التي تمتع بها الداوية من قبل، وواعد بإقامة محكمة خاصة من أجل محاكمة الداوية، لأنه ليس من عادة الكرسي المقدس العمل بتهور، فعندما تنهي المحكمة تحقيقاتها، سوف يصدر الحكم، ويعلنه شخصياً.

وتم تشكيل المحكمة وأعطيت الصفة الشرعية، وشرعت في تفحص المزيد من الداوية، وبها أن فيليب كان يستهدف إدانة الطائفة، وليس الأعضاء فيها فقط، جدد اصراره على تجريم بونيفيس، وطالب باخراج جثته من القبر حتى توضع بالعراء ومن ثم تحرق، ويلقى رمادها بالهواء، وطالب أيضاً بتحليل نوغاريت، مع تعهد من كليمنت بعدم مغادرة فرنسا، وازداد الضغط على كليمنت برفع قضية ملكية ضد الأسقف غوشارد Guichard أسقف تروي Troyes، وتم العثور على شاهد اتهم الأسقف بالمسؤولية (في ٢ نيسان ١٣٠٥) عن موت الملكة الفرنسية جين أوف نافار، وقد ذكر هذا الشاهد بأنه رأى الأسقف، يقوم بمساعدة ساحر، بصنع تمثال من الشمع عمده على أنه جين، وقام الساحر بعد ذلك بطعن التمثال ومن ثم جرى رميه في النار، وقد قيل بأن هذا الحادث قد وقع قبل وقت قليل من وفاة الملكة في ١٥ - آب ١٣٠٨، وجرى اعتقال غوشارد من قبل رئيس أساقفة باريس، الذي بعث به إلى الملك.

وقام كليمنت بتقديم المزيد من التنازلات، بأمل ارضاء فيليب، وذلك مع أنه حافظ على اجراء يتعلق باستقلاليتته بإصراره على أن مصير الطائفة نفسها، يمكن أن يتقرر فقط من خلال مجمع كنسي، وافتتحت محكمة لسماع الاتهامات ضد بونيفيس في أفينون يوم ١٦ - آذار ١٣١٠، حيث استنفد المحامون طاقاتهم وعبقرياتهم، في استئنافات واستئنافات معاكسة لمدة سنة كاملة، ووافق فيليب أخيراً على اسقاط التهم، التي جاءت بمثابة مجرد وسائل ضغط على كليمنت، وفي المقابل

أصدر كليمنت يوم ٢٧ نيسان ١٣١١ مرسوم *Rex gloriae* ، وهو مرسوم أكد فيه بالتحديد براءة فيليب وحسن نواياه، وأمر بالغاء جميع العقوبات المتعلقة بواقعة أناني، وشطبها من السجلات البابوية، وتلقى نوغاريت *absolutio adcautelam* مشفوع بـ *Poenitentea ad Cautela* ، وقد توجب عليه حتى يكسب الشرعية لتحليله المشاركة في الحملة الصليبية التي كان يجري التخطيط لها، وأن يبقى في فلسطين حتى يتم الافراج عنه بعفو بابوي، وبالإضافة إلى هذا كان عليه، أو على ورثته القيام ببعض رحلات الحج المحددة .

وجرى بعد مرور عدة أيام التوصل إلى تسوية سياسية، فقد جرى عقد تحالف بين الامبراطور هنري السابع، وروبرت صاحب نابل *Na- ples* ، وكان هذا الحلف معاديا للمصالح الفرنسية، فموجه كان روبرت سيتسلم الأريلت *Arelate* ، وهو الإجراء الذي عطله كليمنت بتحريمه التنازل عن الأريلت لأي جهة إلاً للكنيسة، وقبل أن يغادر كليمنت أفنون دفع مبعوثو الملك إليه مائة ألف فلورين، مقابل جهوده .

وتقرر مصير طائفة الداوية من قبل مجمع فينا، الذي افتتح في يوم ١٦ تشرين أول ١٣١١، وألغى مرسوم *Vox in excelso* (٢٢) — آذار ١٣١٢) بشكل رسمي الطائفة، وقد تلي أمام المجمع في ٣ — نيسان، وكان وقتها فيليب جالساً على يمين البابا، وما من أحد تجرأ على الجهار بالمعارضة، وقد بقي أربعة من كبار رجالات الداوية، بما فيهم دي مولي وكارناي *Charnai* في السجن حتى ١٩ — آذار ١٣١٤، عندما جرى تعيين لجنة بابوية لتقرير مصيرهم ، وحكمت اللجنة عليهم بالسجن مدى الحياة، وتلقى اثنان من الداوية الحكم عليهما بصمت، بينما احتج دي مولي وكارناي بصوت مرتفع، وأعلنا عن براءتهما، وأوضحا أن اعترافتهما قد انتزعت منهما بالتهديد بالموت، وبدا الأمر وكأن اللجنة قد تأثرت، فقررت معاودة الاجتماعات بنية تفحص

القضية بشكل أعمق في اليوم التالي، وأعيد الداوية بشكل مؤقت إلى السجن لدى عمدة باريس، وجرى إخبار فيليب بهذا التطور الجديد، وبعد التشاور مع مجلسه الاستشاري الملكي، بغياب أعضائه اللاهوتيين، أمر بإحراق الداويين المتمردين، وجرى تنفيذ الأمر في ذلك المساء بالذات قبل أن تتمكن اللجنة البابوية من اتخاذ أي إجراء إضافي.

وربحت الملكية الوطنية في صراعها مع البابوية نصراً ساحقاً مثلما كانت البابوية قد حققت ونالت من الامبراطورية منذ مضي نصف قرن، فالآن لم يقتصر الأمر على تقرير حل كل نقطة من القضية لصالح الملكية، بل جاءت ترقية الكرادلة الفرنسيين لتضمن — كما بدأ — استمرار خط التعاطف البابوي تجاه الفرنسيين، ذلك أن البابوات سوف يستمرون في السكنى في أفينون تحت ظل الملكية الفرنسية، وجاء الحادث التاريخي في انقطاع خط ولادات الذكورة في أسرة كاييه بوفاة أولاد فيليب ليشكل حقيقة هامة في تدمير كثير من صورة واجهة الواقع السياسي الذي أوصله فيليب الرابع إلى الكمال، ومع هذا، إنه على الرغم من الفوضى التي أعقبت مائة سنة من الحروب الأهلية والخارجية نجحت الملكية الفرنسية في الحفاظ على بعض معايير الوضع التي تمّ الحصول عليها أثناء حكم فيليب.

ولدى تفحص أعمال فيليب ومستشاريه، تملك الانسان الدهشة تجاه اللامبالاة الدينية ومظاهر الرياء، مما يتواءم أكثر مع الروح العلمانية لعصر النهضة، من توائمه مع التقوى التي ضرب بها المثل في العصور الوسطى، ولا يمكن عدّ إصرار نوغاريت على الحصول على التحليل عملاً معاكساً وبينه مضادة لهذا التفسير، فقد كانت الأعراف السائدة تجعل من الانسان المحروم كنسياً منفيّاً اجتماعياً، ولهذا أراد رفع الحرمان، هذا ولا توجد أدنى بينة أنه اهتم بخلاص نفسه، وبما أنه أُنذر من قبل البابا بأن قانونية تحليله وتطبيقه يعتمد على تنفيذ بعض

الشروط، جاء تحركه الوحيد لخدمه هذا المقصد باصدار مذكرة جديدة بالحث على الحملة الصليبية، والقول بأنه لو عاش أطول (مات في نيسان ١٣١٣) لأمكنه انجاز أكثر، قول غير مقنع في ضوء أعماله ونشاطاته.

في مثل هذه الأجواء عاش بيير دوبوا، وكتب مناشيره، وسعى نحو قبول اقتراحاته بالاصلاح، ولم يتسلم دوبوا قط منصباً له مسؤوليته في الدولة، مثلما فعل بيير فلوت وبلازيان، ولم يكن مستشاراً مقرباً من الملك مثلما كان نوغاريت، هذا ولم يكن دوبوا قادراً على إدراك ضرورة قيامه بقصصه أطراف أشرعته حتى يستطيع الإبحار والجواز وسط معيقات وعقبات تيار السياسات الأوربية، ولأنه كان متدينا على عكس نوغاريت الذي كان لامباليا، فقد عبر عن أفكار كان من شأن قبولها القطع عميقاً والمضي داخل التنظيم الأوربي، أكثر من أي شيء جرى اقتراحه من قبل معاصريه الذين كانوا في مواقع أكبر للمسؤولية، فقد بذل نوغاريت غاية جهده للدفاع عن السلطة الملكية في فرنسا وللرفع من شأنها، وكان دوبوا يود أن يجعل من الملك الفرنسي سيداً لكل من الشرق والغرب، وقاتل فيليب مع مستشاريه التدخل البابوي في السياسات الوطنية، وبناء عليه أراد دوبوا انزال الكنيسة وارجاعها إلى وضع أسقفية بدائية فقيرة، وجعلها مجرد قوة روحية.

أفكار في كتاب استرداد الأرض المقدسة

يتألف كتاب الاسترداد من قسمين، ويحتوي القسم الأول الفصول من ١ — ١٠٩، وهو حين وجهه إلى ادوارد الأول ملك انكلترا، قد أراد بشكل واضح انتشاره العام بين الحكام الأوربيين، مع تحفظ من جانب الملك الفرنسي، وكان هذا أمراً من السهل تدبره وترتيبه بتغيير بعض العبارات هنا وهناك، وقيد دوبوا أفكاره وحصرها في القسم الأول من الرسالة للحديث عن اقتراحات ذات طبيعة عامة، مثل موضوع الحملة الصليبية، والسلام، واصلاح الكنيسة، والتعليم،

وتحدث بعبارات لا يمكن أن تسيء إلى المشاعر الوطنية في البلدان الأخرى، فنادرًا ما ذكر فرنسا وملكها، وكان القسم الثاني الذي حوى الفصول من ١١٠ حتى ١٤٢، ذا طبيعة خاصة قصد أن يطلع عليه فيليب وحده، وهنا أطلق دوبوا العنان لغلوه بالوطنية الفرنسية، وأوضح كيف أن مملكة فرنسا وحكامها سوف يستفيدون من تبني اقتراحاته، وبين اجراءً يمكن أن يجعل الملك الفرنسي سيداً لكل من الشرق والغرب، بما في ذلك الامبراطورية الاغريقية وبلاد الشام والشرق العربي.

ومن حيث التكوين كان كتاب الاسترداد كتاب التماس ودعوة إلى حملة صليبية لاستخلاص فلسطين من أيدي المسلمين، لكن هل رغب دوبوا بالفعل وبشكل أصيل بقيام حملة صليبية، أو أن شكل دعوته لم يكن سوى مجرد مركبة موائمة للتعبير عن أفكاره حول حشد من المسائل لها ارتباط بعيد بمثل هذا الهدف؟ ومن خلال دراسة أفكاره واستعراضها في ضوء الحوادث المعاصرة قد أقنعت أن رغبته من أجل حملة صليبية كانت أصيلة، لكنها كانت مرفقة برغبة مساوية بالأصالة للرفع من شأن الأمة الفرنسية وملكها، فقد أسهم الفرنسيون بدور هام جداً في جميع الحملات الصليبية المتقدمة، وليس دون سبب مسوغ قام بونارر Bongars باعطاء ما جمعه من مواد حول الحروب الصليبية عنوان *Gesta dei Per Francos*، فمن كان في سنة ١٣٠٠ من القوى الأوروبية غير الفرنسية يمكنها أن تأخذ بزمام المبادرة في حملة صليبية جديدة؟ وإذا ما قام الملك الفرنسي ووضع نفسه على رأس مثل هذا الجهد، أو لا يكون وقتها جديراً بنيل بعض المنافع المادية من خلال بذل الدماء الفرنسية مع الأموال؟ وليس من الضروري تبيان أنه كان هناك حديثاً عالمياً حول حملة صليبية، لكن السؤال كم من ذلك كان أصيلاً؟ وأن نقول بأن رجال الدولة والملوك قد تولوا رعاية التفكير في جهد عام

لإنقاذ الأرض المقدسة، في ذلك مجافاة كبيرة للحقيقة، ومع هذا مسؤوليتنا محصورة هنا مع مخطط نظري وليس مع رجل دولة.

وبعد سقوط عكا (١٢٩١)، كان جل الدعاة إلى حملة صليبية جديدة مدركين أن هجوماً جبهوياً على ساحل فلسطين، سيكون محكوماً عليه بالاختفاق، وقد حولوا انتباههم إلى امكانية التحرك على الجناح، وجرى تحويل بعض هذه الأفكار إلى عمل، فقبل خمس عشرة سنة من كتابة دوبوا للاسترداد، جهز البابا نيقولا الرابع اسطولاً مكوناً من عشرين غليوناً، وقد اندمج هذا الاسطول واتحد مع اسطول آخر تألف من خمسة عشر غليوناً قدمها هنري الثاني صاحب قبرص، وشن الاسطول الموحد هجوماً غير ناجح على ساحل آسيا الصغرى عند سكاندالور Scandalore (آلانيا Alanya الحالية)، ثم أبحر إلى مصر في محاولة مثلها مخففة للاستيلاء على الاسكندرية، وبعد مضي عشر سنوات قامت مجموعة من النسوة الجنويات الثريات ببيع مجوهراتهن لتجهيز اسطول، كان من المفترض أن يتعاون مع المغول، الذين كانوا آنذاك يسيطرون على دمشق، وكان الاسطول جاهزاً للإبحار في سنة ١٣٠١، لكن الذي حدث هو أن المغول كانوا قد تخلوا عما استولوا عليه في سورية، وبذلك تمّ التخلي عن المشروع، وفي سنة ١٣٦٥ هاجم بيتر الأول دي لوزغنان، حاكم قبرص، الاسكندرية ونهبها لكن دون أن يحقق أية منافع ضد الاسلام.

وقامت خطة دوبوا من أجل حملة صليبية جديدة— على الرغم من عباراته الطنانة بكيل المديح لادوارد الأول صاحب انكلترا— وتأسست على قاعدة أن يتولى الفرنسيون القيادة، وكانت لديه فكرة متحمسة جداً حول الموارد التي تمتلكها المملكة الفرنسية (الفصل ١١٢)، وسوف يتشكل الجيش من متطوعين مع الذين تم نفيهم إلى الارض المقدسة كعقوبة لشنهم الحرب ضد جيرانهم، أما بالنسبة للرهبانيات العسكرية،

لا بد من اتخاذ تقدير خاص لهم، بحكم اختصاصهم بالأعمال العسكرية، وعليه يمكن وضعهم في المقدمة في القتال ضد المسلمين، وتتم اثاره الحماس بين المتطوعين باستخدام الأزياء الموحدة وبوساطة الموسيقى العسكرية، وبهتافات المشاهدين في أماكن حشد القوات، وينبغي إقامة معسكرات للاستراحة في الأرض المقدسة، حيث يمكن استرداد شجاعة وحماسة الجرحى والمتعبين في أجواء عادية.

وكان تمويل الحملة الصليبية برأيه قضية سهلة، فالهبات التي تقاطرت من قبل على الرهبانيات العسكرية، ينبغي استخدامها من أجل الحملة الصليبية الجديدة، ويجري تدعيم ذلك بفرض ضرائب دخل ثقيلة على رجال الدين، وضرائب على المواريث، والاستيلاء من أجل ذلك الغرض على الأموال التي بلا أصحاب في مختلف المجالات وعلى جميع المستويات، وكان فطنا بما فيه الكفاية ليدرك أن سمة الانفعالية في الحملات الصليبية المتقدمة والجهود السابقة كان السبب الرئيسي لاختراقها، ولهذا حث على استعمار الأرض المقدسة بوساطة مسيحيين مدرين ومخلصين من الغرب، وكان حريصاً على أن يبين المنافع الاقتصادية لمثل هذه الخطة بالنسبة للغرب الأوربي المتعطش للحصول على المنتجات الشرقية.

وكان الشرط الأساسي لحملة صليبية ناجحة هو إقامة السلام في أوروبا، وقد لاحظ وجود نمطين من الحروب: حروب صغيرة بين السادة الاقطاعيين، وحروب بين القوى ذات السيادة، وكان العلاج بديهيًا، في أن نجعل جميع الرجال يقسمون بالحفاظ على السلام، وإذا ما تفجرت حرب ما، لا بد أن ذلك سيكون عملاً اقترف من قبل أحد المعتدين، ومن الممكن التعرف على المعتدي من خلال أعماله، وعندها يتوجب إخضاعه إلى مقاطعة اقتصادية، واجاعته بسرعة حتى يستسلم، ووقتها سوف تتوقف الحروب في أوروبا، لأن ما من واحد سيمتلك

الجرأة لبدأ حرباً عدوانية في وجه مثل هذه العقوبات المرعبة والتي لا يمكن تجنبها، أما الحروب بين القوى ذات السيادة، مثل الحروب المتفجرة بين الملكيات الوطنية الناشئة في أيامه، فمن الممكن منعها بإقامة آلية تحكيم، تولى دوبروا وصفها بشيء من التفصيل. (الفصل ١٢).

والشرط الأساسي الثاني للقيام بحملة صليبية احداث اصلاح دقيق في الكنيسة في الرأس وفي الأعضاء، وبعد ردع الأساقفة عن انصرافهم الدنيوية وعن شرهم، وعن المثل السيء الذي يقدمونه لمن هم دونهم من رجال الكنيسة وإلى الناس، بعد هذا، أوصى دوبروا بالاستيلاء على أموالهم الدنيوية، وتحويلها إلى وقف دائم، على أرضية أنهم لم يكونوا الملاك، بل مجرد مشرفين إدارياً على أملاك الكنيسة، علماً بأن هذه الأملاك يمكن إدارتها بكفاءة أعظم من قبل سلطات مدنية.

أما بالنسبة لرجال الدين النظاميين، فقد كان لدى دوبروا ما يقوله للمتسولين، مع أنه رأى جوب تمويلهم بطريقة تجعل التسول عملاً غير ضروري، وأتهم الرهبان بشكل عام بأنهم لم يحافظوا على تعهداتهم بالفقر، والعيش كذلك، ولتقديم الاحسان، والطاعة، وقد انتقدهم ووصفهم بالفوضوية، وقال عنهم بأنهم جماعة من شذاذ الآفاق، عصاة على رؤسائهم، راغبون في جمع الذهب والفضة، التي عهدوا بها إلى رجال علمانيين خارج الديرة من أجل تأمين الأرباح لهم، وقد صور تعهدهم بحياة العذوية بأنه مجرد مصيدة، نصبت بغباء من أجلهم من قبل آباء الكنيسة القدماء، وتمت رعايتها والعناية بها فقط عن طريق خرقها، واقترح دوبروا إعادة تأسيس مبادئ الحياة في الديرة، بإلغاء الرعاة من غير الرهبان، حيث هناك عدد قليل من الرهبان يعيشون حياة ترف، وكسل ورخاء، وهؤلاء ينبغي تقويمهم وانزال دخلهم المالي إلى الحد الأدنى، وما يتوفر من المال ويزيد يتوجب تكريسه لمنافع الأرض المقدسة، ومن الواجب تقييد عمل الراهبات وحصر أعداد القاطنات في

الديرة، فالأفضل هو تحويلهم وإرسالهم إلى مدارس الفتيات.

وكتب دوبوا الاسترداد قبل هجوم فيليب على الداوية بشكل معلن، ولهذا لم يقدّم بجهد للتمييز بين الاستبائية والداوية، بل أوصى بدمج جميع منظمات الرهبانيات الدينية في منظمة واحدة، تحت قيادة واحدة، ويتوجب أن يطلب من جميع أعضاء هذه المنظمات العيش في الأرض المقدسة، وأن يجري تحويل جميع ممتلكاتهم في أوروبا إلى المدارس التي يتوجب تأسيسها وذلك كجزء من برنامجه الاندماجي المقترح للتعليم.

وإذا كان الأساقفة بحاجة إلى الإصلاح هم والكهنة النظاميين، فبالحري حاجة البابوية إلى ذلك، وقال دوبوا بأن ميراث القديس بطرس كان السبب الأساسي في تراجع البابوية، لأن البابوات حرصوا على الحرب وخاضوها، وانشغلوا بواجبات إدارتهم الدنيوية فلم يتوفر لديهم الوقت للقيام بواجبهم الرئيسي، وهو العناية بالأرواح والنفوس، وقد اقترح بأن العلاج بسيط لكنه شديد مؤلم، وهو أن يتم تحويل الميراث وموارده إلى الملك الفرنسي مقابل ضمان عطاء سنوي، وبذلك يمكن للبابا أن يكرس وقته كاملاً لأعماله الروحانية، وهو عندما يتحرر من مسؤولياته الدنيوية الثقيلة، يمكنه وقتها إحداث إصلاح شامل ودقيق للكنيسة.

ومن أهم ملامح خطط دوبوا كان نظام التعليم الجديد، البعيد عن المدارس والجامعات التي كانت موجودة، وقد اقترح إقامة مؤسسة عملاقة يكون واجبها الرئيسي هو تأسيس مدارس للصبيان وللبنات في كل مقاطعة من مقاطعات فرنسا، وأن يكون الهدف الرئيس لهذه المدارس هو تدريب الشباب من الجنسين للخدمة في الشرق، وقد أعطى لثلاث نقاط أهمية خاصة: وأولى هذه النقاط، التمكن من معرفة اللغات الأجنبية، فبدون هذه اللغات من الصعب جداً نجاح الجهود التبشيرية وإدارتها في الشرق، والنقطة الثانية: وضع برنامج للدراسة متسارع،

حتى يمكن إكمال التدريب المطلوب في سن مبكرة، والنقطة الثالثة: تأمين خبرة عملية، سواء في الوعظ والتبشير أو في مجالات التطب، والأعمال الأخرى المرتبطة، أو القانون، وينبغي إقامة مدارس منفصلة من أجل مواضيع دراسات أكثر تخصصاً، مثل دراسات القوانين والشرائع المدنية، والفلك، واللاهوت، والأعمال المتقدمة في الطب.

وباستثناء مثل هذه الموضوعات الاختصاصية، كان من المتوقع أن يتبع تعليم الفتيات بشكل أساسي القواعد نفسها المتخذة لتعليم الصبيان، إنما مع إلحاح خاص على الطب والجراحة، وينبغي الاهتمام أيضاً بتأسيسهم بشكل جيد بمبادئ الإيمان الكاثوليكي، وبعد اكتمال تدريباتهم، من الممكن تبني هذه الفتيات الجميلات الناضجات بمشابه بنات وحفيدات أمراء الغرب وأعيان الرجال فيه، ومع التمتع بمثل هذه السمعة الاجتماعية والمكانة السامية، وبعد إلباسهن على حساب المؤسسة، وقتها يصبحن جاهزات لتزويجهن من أساقفة ورجال دين شرفيين، ومن أمراء مسلمين وأثرياء، فمن الممكن نجاح مثل هذه الزوجات في تحويل قرنائهن إلى الأيمان الروماني، كما يمكنهن الحصول على فتيات مدربات مثلهن ليكن زوجات لأولادهن.

واحتاجت الاجراءات في المحكمة، وكذلك دراسة القانون إلى الاصلاح، وكان دوبوا، بحكم كونه محامياً مجرباً، على دراية بآثار الخدع الخطابية ومؤثرات الصوت والحركات التي كان المحامون البارعون يستهدفون من استخدامها التأثير على الذين يستمعون إليهم، ولهذا أوصى بتقديم جميع الالتماسات والمرافعات كتابة، يعني أن تكون هذه الأشكال المكتوبة محصورة بالشكاوى، وبردود الدفاع، ورد المدعي، ورد الدفاع على المدعي، وينبغي أن يمتلك القاضي السلطة على رفض القضايا التي ليس لها علاقة، والمقحمة، وكان دوبوا قانعاً بأن طريقته سوف تزيل إطالة القضايا القضائية، وستكون موائمة بشكل خاص

للتبني حالاً في مسألة الاستيلاء على الأرض المقدسة، لأن الخلافات سوف تتفجر، وسوف تثور، لو أن كل مجموعة من المجموعات القومية العديدة أصرت على استخدام طرائق الاجراءات المعتاد استخدامها في بلدانها الخاصة بها.

وكان القسم الثاني من كتاب الاسترداد، مصمماً لرؤيته من قبل الملك فيليب ومستشاريه المقربين فقط، ولهذا حول دوبوا انتباهه هنا إلى المشاكل الفرنسية، ومع أنه كان بلا خبرة عسكرية، فقد ناقش بشيء من الطول الاجراءات المتوجب اتخاذها في الدفاع عن المملكة، وحسب شرحه لهذه الاجراءات يمكن للملك في الوقت الذي يرغب به، توجيه الدعوة إلى الإقطاعيين التابعين له، المتوجب عليهم تقديم خدمات عسكرية على حسابهم، ويمكنه في أوقات الطوارئ استدعاء الممتلكين لاقطاعات حرة، الذين هم بالعادة معفيين من تلك الواجبات والالتزامات، وتكون الخطوة التالية هي «الاستنفار العام»، ويمكنه أخيراً في أوقات الضرورات القصوى والطوارئ الاستيلاء على ممتلكات الكنائس، والمؤسسات اللاهوتية، وهذه الخطوات جميعاً — باستثناء الأولى — مسوغة فقط في أوقات الطوارئ الوطنية.

وكان دوبوا قانعاً بأن الملك، قد ضلل من قبل مستشاريه الذين تغاضوا عن المراوغة في تطبيق الالتزامات الاقطاعية، فالتجأ بالغالب إلى اتخاذ الاجراءات الاضطرارية غير المسوغة قانونياً، وهذه الطريقة كانت الكنيسة مستبعدة، وتمت مقابلة الأعباء المالية الإضافية — ثانية بناء على نصيحة المستشارين العاجزين أو الأشرار — بتخفيض عيار العملة، مما يلحق الضرر برعايا الملك، وأصر دوبوا على أن من الممكن تجنب هذه الشرور بسهولة، وذلك بفرض الالتزامات الاقطاعية وتطبيقها بحزم، وإذا ما تم تنفيذ هذا، سيمتلك الملك من ورائه قوة عسكرية لا يمكن مقاومتها، وسيكون بإمكانه القيام بمشاريع عسكرية واسعة، وهو ما

كان دوبوا يحثه على القيام به.

فما الذي كانته هذه المشاريع؟ لقد كانت بشكل مجمل إقامة سيطرة فرنسية على الغرب والشرق، فبالاستيلاء على ميراث القديس بطرس، سيتمكن الملك الفرنسي من ممارسة سلطانه على أتباع البابا، الذين كان من بينهم ملوك إنكلترا، وأراغون، وصقلية، وإلى مملكة صقلية ينبغي إضافة مملكتي القدس وسردينيا، ثم إنه بدعمه لأبناء ابن خاله في الخلاف العائلي في كاستيلا، سيتمكن من نيل السيادة على تلك المملكة، كما أن رعايته لحملة صليبية ناجحة سوف يمنحه السيطرة على الأرض المقدسة، ومن الممكن للجيش الصليبي المتصارع العودة عبر طريق القسطنطينية، حيث سيتمكن أخوا الملك، شارل أوف فالويس من الاستيلاء على الامبراطورية الاغريقية، وبالقيام بترتيبات مع البابا الفرنسي الجديد (كليمنت الخامس) من الممكن إقناع الناخبين الألمان بإعطاء أصواتهم إلى عضو من الأسرة الفرنسية المالكة، وأيضاً من الممكن الحصول على الأريث والصفة اليسرى للراين من خلال مناقشات ودية مع الامبراطور الألماني، وتوقع دوبوا بذكاء احتمال قيام البابا كليمنت الخامس بتعيين ما يكفي من الكرادلة الفرنسيين لضمان أكثرية فرنسية، وبذلك يمكن للبابوية أن تبقى فرنسية الملامح، واقترح في منشور متأخر خطة من أجل السيطرة على مصر، ويمكن للانسان أن يقول معقّباً: لو أن جميع هذه المشاريع قد تحققت، وقتها كان فيليب سيتطلع فقط لعوالم أخرى ليستولي عليها!

تقويم نقدي لدوبوا

في الحديث عن المؤثرات المتنوعة التي أسهمت في صياغة أفكار دوبوا، نجد بلا شك أن أهمها كان القانون، فهو لم يكتف بتلقي تدريبات دقيقة في هذا الموضوع، بل أمضى حياته في ممارسة العمل القانوني كمحترف، ومن هذا الميدان استقى مقارباته القانونية وأحياناً

غير الواقعية للمشاكل التي اهتم بها شخصياً، ويتوجب على الذين عدّوه مجرد مصلح اجتماعي خيالي أن يلاحظوا أنه حتى أكثر خطئه تناقضاً قد منحت ثوباً عملياً، ولدى النظرة إلى الموضوع نظرة إجمالية، نجد أن رسالته لا تترك الانطباع أنه كان يتولى صياغة شكل دولة مثالية، بعيدة عن مملكة الواقع الممكن، فقد صاغ كل اقتراح وعبر عنه بعبارات عملية، تستخدم في أوضاع كانت تماماً معروفة بالنسبة لمعاصريه، وكان دوماً متوقفاً حجج خصومه، ولديه حل جاهز وواضح لكل مشكلة، ولم يأخذ بالتأمل الفلسفي حول السيفين، أو الشمس والقمر، وغير ذلك من التشابيه التي راجت كثيراً في الكتابات السياسية لمعاصره الكبير، دانتي، فقد ظل دوبوا دوماً مرتبطاً بالأرض، وقد تحدث بعبارات عملية يمكن للأحاسيس العامة للأفراد فهمها وتقبلها.

وكان المؤثر الثاني، الذي يمكن عدّه معاكساً للأول، هو التأمل الفلسفي العلمي، الذي استقاه أثناء أيام دراسته في باريس، وشحذت المناقشات في ساحات الجامعة، التي لا شك أنه شارك فيها قدرته على الجدل، التي هي ضرورية لممارسة مهنته، ومن المحتمل أنه هناك تعلم القياس المنطقي الذي استخدمه من وقت إلى آخر، للوصول بالمناقشة إلى مبتغاه، ففي الجامعة استمع إلى محاضرات توماس الأكويني الذي كان أعظم علماء وقته، غير أن دوبوا لم يكن مفكراً عميقاً، ويبدو أنه افتقر إلى ما يكفي من التبصر الفلسفي حتى يتفهم استخدامات الفلسفة التوماسية، وصحيح أنه نقل عن توماس وذكره بالاسم مع الموافقة والتأييد، نجده ينقل في مرحلة تالية بالتأييد نفسه والموافقة عن سيغبرابنت، الذي كان ممثلاً لمدرسة من التفكير المناهضة للمدرسة التوماسية.

وفي أثناء الإقامة في باريس كان دوبوا عضواً في الأمة النورماندية في الجامعة، وفي أثناء المناقشات التي ثارت في الجامعة واستعرت بين

مدارس الفلسفة المتعارضة كان موجوداً، وتبنت الأمة النورماندية بشكل عام موقف الرشدية الذي مثله بقدره سيغري براينت، واقترح دوبوا في عرض موجز دراسة العلوم الطبيعية، وأوصى بالتحديد بالعودة إلى كتابات سيغري (الفصل ٧٢)، وعنه نقل في مكان آخر على أنه مفسر معتمد للأرسطوطالية (فصل ١٣٢)، وقدمت المدرسة الرشدية في التفكير المنطقي المؤثر الثالث، الذي أثر على دوبوا خلال سنوات تكوينه.

وتأثر عقل صاحبنا المحامي — الذي كان عقلاً علمياً — بالدرجة الرابعة «بالمدرسة التجريبية» التي كان روجر بيكون الشارح لها، ولعله عرف بيكون شخصياً، وهو على كل حال أظهر معرفة كبيرة بكتابات هذا الراهب، التي نقل عن بعضها بالعنوان وباسم الكاتب، ويبدو أن بيكون قد لقي اهتماماً قليلاً في أيامه، ومع أن دوبوا كان رجلاً علمانياً في حقل الفلسفة، يعدّ واحداً بين الندرة من معاصريه الذين نقلوا عنه بالاسم، وقدموا براهين على أنهم قرأوه، ويبرهن على أنه تأثر كثيراً وبعمق بأفكار بيكون تكرار إصراره على قيمة التجارب العملية، وبإظهار رغبته في ضغط نصوص كتب المجلدات الكبيرة الرائجة والشروح، وإخراجها بحجم معقول، وباهتمامه الكبير بالقيمة العالية لمعارف اللغات المعاصرة، وكان أيضاً متفقاً مع بيكون حول قيمة ومكانة دراسة العلوم والرياضيات، وبلغ به الحماس لهذا الأمر إلى حد التوصية بالأخذ بتوصية بيكون الحماسية من أجل استخدام المرايا في الأعمال القتالية.

وأخيراً في مقابل التأثير العملي بمدرسة روجر بيكون «المدرسة التجريبية»، وقع دوبوا تحت تأثير الأفكار الكياوية لريموند لول Lull، هذا ومن الممكن أن الرجلين قد عرفا بعضهما شخصياً، ففي أيام حياة دوبوا، أمضى لول خمساً وعشرين سنة في نشر أفكاره، بشكل كبير

في فرنسا، ولقد كان موجوداً في مجمع فينا في سنة ١٣١١، حيث ربح الموافقة على خطته من أجل دراسة اللغات الشرقية في مجمع الكرادلة وفي الجامعات، وقد أراد لول من دراسة اللغات الحديثة الإفادة من استخدامها في أعمال التبشير، في حين أراد دوباوا استخدام اللغات من أجل عظمة فرنسا، وكان في ذهن كل واحد منها استخدام عملي من أجل اللغة، وأصرّ في الوقت نفسه ليكون مثلها على دراسة اللغات، لكن بالدرجة الأولى من أجل استخدامات علوم فقه اللغات، وكانت مقارنة لول مقارنة علمية، فقد بدأ يقول في كتابه *Liber de ac- quistione Terra Sanctae* الذي وجهه إلى فيليب الرابع في سنة ١٣٠٩: «إنه من أجل الحصول على الأرض المقدسة هناك ثلاثة أمور أساسية هي: القوة، والحكمة، والاحسان»، وبدأ كتاب *Liber nat- alis*، الذي أيضاً وجهه إلى فيليب في سنة ١٣١١، بوصف ست نساء مزعومات نثرن المديح على فيليب، ومن خلاله يمكن أن نلاحظ خطط لول، والمقصود هنا قمع الرشدية، وزيادة احترام الكنيسة وحسن سمعتها، وتحويل الكفار، وهزيمة المسلمين، ولاشك أن مثل هذه المقاربة لم تكن واردة عند دوباوا وبعيدة عن تفكيره.

وهذه المؤثرات المتنوعة، اللائي يمكن تقصي أثرهن لدى دوباوا، عبارة عن دليل أنه عاش على اتصال مع جميع التحولات الفكرية الهامة لعصره، فمن هذه التيارات المتنوعة وذوات التأثير المتضاد المتداخل، استقى ما حكم عليه بأنه سوف يوسع مشاريعه، ومع هذا هو لم يكن مجرد ناسخ لأفكار الآخرين، فقد أبدى استقلالية بالتفكير مدهشه، واستعداداً للخلاف وللابتعاد عن مصادره المحترمة التي نقل عنها، فقد كان محامياً، وغداً ثرياً من خلال المشاركة في الاجراءات القضائية لأيامه التي كانت طويلة وبطيئة مرهقة، ومع هذا نادى باصلاح قانوني، أعلن أنه لو طبق لكان من معانيه خسارة مالية لأبناء حرفته، وقد توفر لديه

احترام عظيم للقوانين وللإجراءات القضائية، لكنه آمن بضرورة تغيير القانون وأن هذا واجب عليه، ولهذا عرض خدماته لإعادة النظر بالقوانين القائمة، ولإزالة ما هو حتمي ومتناقض، ومع أنه تدرب على العمل العلمي في باريس، عبر عن انعدام صبره تجاه دقة وبراعة العلماء، وقد أعلن عن نفسه تلميذاً لسيغر دي برانت، وحملت أفكاره بصمة من التأثيرات الرشدية، لكنه رفض مجارة سيغر والرشدية في إنكارهما للفضايا الفردية، وللمسؤولية الشخصية والارادة الحرة للإنسان، وفي مجال العلم والرياضيات نقل عن روجر بيكون مع الاحترام، لكن عواطفه المعبر عنها حول القانون والإجراءات القانونية تعارضت بشكل حاد مع أفكار الراهب البيكون الذي عدّ العمل القضائي معيقاً لتقدم التعليم، وكان ريموند لول قد اقترح صيغة أو تركيبة تمكن الإنسان من الحصول على جميع المعارف، وبالمقابل ألح دوبوا بشيء من الطول على أنه من غير الممكن الحصول على جميع المعارف (الفصل ٨٤)، وكان لول عدواً شديداً للرشدية، وعبر دوبوا عن ودّ واضح نحو عدد من أفكار الرشدية.

وكان من بين معاصري دوبوا الذين نقل عنهم ألبرتوس ماغنوس Albertus Magnus ، وهيرمان الألماني، الذي ترجم «الأخلاق» لأرسطو، وكان دوبوا على معرفة بمعظم كتاب العصور الوسطى، ومع هذا لم ينقل عن مؤلف كان حياً بالاسم، فعلى سبيل المثال، هو لم يذكر ريموند لول، مع أنه من الواضح بأن دوبوا كان يعرف أفكاره، وفي القائمة نفسها أجيدوس رومانوس Aegidius Romanus ، الذي كان قد أهدى كتابه De regimine Principum إلى فيليب الرابع، قبل اعتلاء ذلك الملك الشاب للعرش، وقد أمر فيليب إثر تتويجه مباشرة بترجمة تلك الرسالة إلى الفرنسية، وكان أجيدوس على صلات وشيخة بفيليب ومقرباً منه، ولم تتأثر علاقاته هذه كثيراً ولم تفسد

بظهور كتابه *De eules iastica Potestate* المؤيد لبونيفيس، في أثناء الخصام بين الملك وبين البابا، وبناء عليه من المحتمل كثيراً أن دوبوا قد عرف الرسالة المبكرة، ويتدعم هذا الاحتمال بوجود أوجه تشابه بالتفكير وفي التعبير.

وجل المصادر التي اعتمدها دوبوا ونقل عنها كانت أرسطوطالية، وكذلك من الكتاب المقدس، ومن الشريعة المدنية والقوانين، مع نقول قصيرة وقليلة من الكتب الكلاسيكية، واعتمد في النقول على ذاكرته، وهذا أمر واضح، لأن النصوص التي اقتبسها نفسها، اقتبسها أحياناً ثانية بتغيرات بالأفعال، وكان المفضل لديه بين مجموعة كتب أرسطو «الأخلاق» و«السياسة»، ومن الصعب تقرير صحة القراءة، لأننا نستطيع بأي طريق من الطرق تحديد أي مخطوطات كتب أرسطو قد استخدم، وسيكون من الظلم مطالبتة بالعودة إلى نصوص محققة بعناية، ومن الممكن القول بدون تجاوز: إنه غالباً ما اقتبس من كتاب أرسطو طالي خاص، وفي حالات قليلة تبرهن أن اقتباساته من رسالة أخرى غير التي ذكرها، وكثيراً ما قام بدمج عبارات أرسطوطالية بعيدة عن بعضها، وقدمها ضمن أفكاره بمثابة عبارة واحدة، وأكثر من هذا كان يضيف إقحامات من الواضح أنها من عنده، وهذا ما يجعلنا نتوحدس أن ما كان يستهدفه من الاقتباسات الكثيرة إظهار أنه كان رجلاً صاحب ثقافة عالية، ذلك أن الاقتباسات كثيراً ما نجد لها علاقة مباشرة لها بالموضوع المعروض للمناقشة.

وصيغة اقتباساته من الكتابات المقدسة قريبة جداً من صيغ الطبقات الحديثة من الترجمات الشعبية، والاختلافات البسيطة التي تظهر في بعض النصوص مردها إلى ضعف محققي الطبقات اللاهوتية الحديثة في ميدان اللهجات الشعبية وقام دوبوا مرة أو مرتين بإقحام عبارة من عنده في وسط نص توراتي، وقام مراراً بالمزج ما بين نصوص مختلفة،

وغالباً ما نقل عن العهد القديم بذكر اسم الكتاب أو الكاتب، اللهم إلا باستثناء واحد، ونقل عن العهد الجديد بشكل مبهم تحت عنوان «الرسول» و«الرب» أو «المخلص»، والغلطة الوحيدة التي لاحظتها في إحالته لواحد من نصوص أعمال الرسل مع أنه من الانجيل، وساد معيار الصحة نفسه بالنسبة لنقله من قانون الشريعة، وقد ابتعد في مناسبات قليلة عن النص كما ورد في طبعة فريديبرغ Friedberg الحديثة، ووجدته مصيباً في الأماكن التي أتعب نفسه فيها لتحديد نص قانوني محدد قام بنقله أو اقتباسه، ونقله من القانون المدني موزعة بالتساوي فيما بين الـ Digest والـ Novellae، وكان يشير إليهما معاً بدون تمييز باسم «القانون المدني» ومعيار الصحة في الاقتباس من القانون المدني أدنى من الذي بدأه لدى التعامل مع الكتابات المقدسة، ومع قانون الشريعة، وعزا في مناسبة واحدة (الفصل ١٢٤) نصاً نقله، إلى القانون المدني، مع أنه كان في الحقيقة من كتاب «الأخلاق»، ويمكن أن نعزو هذا إلى إمكانية العجز أحياناً وعدم القدرة على التعرف على مصدر بعض النقول القليلة من هذا النوع.

وبذل دهبوا جهوداً جبارة من أجل الدخول إلى دائرة مستشاري فيليب المقربين، ونجد برهاناً على عدم نجاحه في هذه الجهود بكلماته، فقد ذكر مراراً بأنه مقبل على إرسال هذه الرسالة أو تلك إلى صديق يعمل في البلاط حتى يجري تقديمها إلى الملك (الفصول ١١١ - ١١٧)، كما عرض مراراً خدماته للقيام ببعض الإصلاحات المقترحة، ولوأنه كان عضواً من المستشارين المقربين من فيليب ما كان ليلجأ إلا في النادر لمثل هذه الطريقة من العرض، وصحيح أنه أظهر أحياناً دراية كبيرة بما كان يجري في البلاط، ووضع هذا في الـ Summaria وفي الاسترداد (الفصل ١١١٦)، نقرأ في اتفاقية فوكلر Voucouleurs بين فيليب الرابع والامبراطور البيرت شروطاً كانت بعيدة عن تفكير

الملكين، وكان هنا لمستشار معتمد أن يخطيء مرة، لكن من الصعب جداً أن يكرر الخطأ بعد ست سنوات في مذكرة سرية خاصة، يضاف إلى هذا انتقد مستشاري الملك وخط من شأنهم لأنهم ضللوا الملك في المسائل العسكرية (الفصلان ١٢٨ - ١٢٩)، وعدّهم مسؤولين عن المشورة الخاطئة بانقاص معيار العملة، ومن غير المعقول أن يقدم عضو في المجلس الاستشاري الملكي على استخدام مثل هذه الوسائل من أجل إلحاق الضرر بزملائه حتى يجلب انتباه الملك إليه، ونلاحظ أخيراً أن أسماء المقربين من فيليب من أمثال: بلازيان، وبيير فلوت، ووليم نوغاريت قد ظهرت في الوثائق الرسمية للدولة، في حين لم يظهر اسم دوبوا قط.

وأظهر دوبوا في سعيه في سبيل اقتراحاته الكثيرة للإصلاح شجاعة قناعته، وعندما يقرأ الانسان الـ Summaria ، يمكن أن يحكم من خلال كلماته أن شقة الخلاف بين فيليب وبونيفيس باتت واسعة جداً، وكانت هذه الرسالة قد كتبها في سنة ١٣٠٠ قبل الصراع الأخير الذي تقدم صدور مرسوم Auscultia Fili ، وذلك في وقت كان بونيفيس فيه في أوج قوته، ففي الأشهر التي تدفق فيها الآلاف على روما ليركعوا أمام خليفة القديس بطرس، كان دوبوا يقترح مصادرة ميراث القديس بطرس، وأنه ينبغي أن يقنع البابا بعطاء سنوي، وعلى الرغم مما عبر فيه عن إخلاصه للملك، الذي كانت سلطته ستتحسن كثيراً بنجاحات اقتراحات دوبوا، نجد هذا المحامي النورماندي لم يتردد في توجيه النقد إلى الملك لأخذه ببعض الآراء غير الحكيمّة، ولقد طالب فيليب بوجوب إدارة مملكته ليس من أجل منافعه الخاصة، بل من أجل منافع رعيته، وأكثر من هذا ذكر بصريح العبارة أن تراخيه في تطبيق الواجبات الإقطاعية، كان يسبب الأذى العظيم لرعيته، (الفصلان ١٢٨ - ١٢٩)، ولم يكن دوبوا مصراً دوماً في جراته، على كل حال، ليس حتى

قام فيليب بإظهار الطريقة التي اتبعها من أجل إزالة طائفة الداوية.

ونلاحظ من جرأته وطبيعة كثير من اقتراحاته التي كانت تحتاج إلى وقت طويل، أن دوبوا أخفق بكل وضوح في أن يكون رجل دولة، وتظهر اقتراحاته من أجل توسيع السلطة الفرنسية ضعف في الرؤية بوضوح وبفهم واقع السياسات الأوربية، فما من رجل دولة حقيقي كان من الممكن أن تبلغ به السذاجة إلى حد الافتراض أن التخلي عن مملكة الأارليت، والصفحة اليسرى من نهر الراين، ومن ثم حصول الفرنسيين عليها من خلال مباحثات ودية مع الامبراطور، ومثل هذا بالسذاجة كان اعتقاده أن معظم المشاكل كان من الممكن حلها بالطريقة البسيطة في وضع البابا تحت الوصاية الفرنسية ومن ثم استخدام النفوذ البابوي لزيادة المنافع العائدة لفرنسا وملكها، وكان مدركاً تمام الإدراك وبفطنة عرف الفاجعة التي نزلت بالقوات الفرنسية في الحملة ضد أراغون في سنة ١٢٨٥، ومع هذا كان بإمكانه أن يكتب بشكل عفوي عن السهولة التي يمكن بها لفيليب إخضاع مدن اللومبارد، دون التلميح حتى إلى مصاعب الملك مع مدن فلاندرز، وهي حالة لا بد أنها كانت معروفة بالنسبة إليه.

أما في مجال النقد التاريخي، فقد أظهر دوبوا نفسه في أسوأ الأحوال، حيث أخفق في التسامي فوق السذاجة والخطأ، وهي السمة التي طبعت كتاب العصور الوسطى، وكانت معارفه بالتاريخ المعاصر له أدنى بكثير من معارف دانتي، وقد كرس رسالته وأهداها إلى ادوارد الأول، لكنه أظهر أنه يمتلك معارف ضئيلة عن إنكلترا، وأن ما عرفه عنها لم يتجاوز أنها كانت إقطاعية بابوية، وكان لدى تعامله مع تاريخ الماضي اقتراف عدداً من التناقضات، فقد أشار إلى شارلمان على أنه قد حكم مائة وعشرين سنة، وعده الجد الذي انحدر منه الملوك الفرنسيون، ولعله من الممكن أن يغفر له قبوله بأسطورة قيام شارلمان

بحملة صليبية إلى القدس، وهي أسطورة ظلت حية حتى العصور الحديثة، هذا وأتى على ذكر صلاح الدين وعده ملكاً للأشوريين، كما أنه ذكر ببيرس وعزا إليه الاستيلاء على عدد من البلدان كانت ملكاً لملك الآشوريين.

وقبل دوننا مناقشة كثيراً من الحكايات الخيالية الشعبية لعصره، وآمن بأن مسلمي الأرض المقدسة كانوا يتلقون العون من قبل حشد من الشياطين، الذين منحتهم معرفتهم الكاملة بأحداث الماضي حكمة لم تتوفر لدى الناس الفنانين، وجرى تصوير الشيطان الذي يسيطر على جيش كبير، وهو يقوم بالقتال بفعالية ضد المسيحيين بشكل عام، وضد أفكار دوبوا بشكل خاص، وآمن بأن تفكير الناس وأعمالهم متأثرة بشدة بالنجوم وبحركاتها بالسماء، مع أنه لحسن الحظ لا تستطيع هذه القوى إعاقة إرادة الانسان الحرة، أو أن تحول بينه وبين قدرة التفكير بشكل منطقي، وجرى تصوير فرنسا، وبشكل خاص باريس على أنها واقعة تحت رعاية كتل وعناصر سماوية، ولهذا فإن الناس الذين ولدوا هناك، وهناك نشأوا، كانوا متفوقين على الناس الآخرين، ولهذا كان واجب الملك الفرنسي البقاء في الوطن لانجاب الصبيان في هذه الأجواء المواتمة، وعدم المخاطرة الآن أو في المستقبل بأن يأخذ على عاتقه القيام بحملات شخصية إلى مناطق نائية، ولا شك أن مرد هذه العواطف يعود في قسم منه إلى غلو دوبوا بالوطنية الفرنسية، ومن الصعب أحياناً تقرير المدى الذي تأثر به إيمانه بالنجوم بغلوه الوطني (شوفينيته).

سوابق لأفكار دوبوا

هل كانت الأفكار التي عبر عنها هذا المحامي النورماندي ممثلة لعصره، أو هل كان عبقرياً إلى حد أن أفكاره كانت متوائمة أكثر مع القرون المقبلة؟ وقد تحدث رينان عن :

« Ideas originales, Penetrantes, hardies, sortant si
. « complement de la routine

وصوره ج. ت فگز Figgis على أنه كان متندماً كثيراً على تفكير معاصريه، « du temps » وقال: « كان دوبوا بما امتلكه من جرأة كبيرة، وفي إقدامه، وفي الطبيعة الواسعة لخططه، وفي الفدرة التي عرض بها هذه الخطط، وفي الأصالة التي جعلت من عظمة فرنسا وملكها محوراً لإصلاح لاهوتي ولجعل العالم كله مسيحياً، كان بالحري هو الأشبه بعدد من الثوريين العقائديين من أمثال: روبسيير Robespierre أو لاسال Lassalle، وليس من القانونيين العميان أو المتقيدين بالنص، للقرنين الثالث عشر والرابع عشر، وذلك حسبما تعلمناه لتصوره»، وعدّه ديلافيلا لي رولكس الانسان الذي كان الملهم لسياسات فيليب، وكان بإمكان الأنسة إيلين بور أن تقول عنه: «الأكثر جرأة والأعظم أصالة بينهم جميعاً، وبلغت به المعاصرة إلى حدّ بدا فيه وكأنه كان يكتب للويس الرابع عشر، أو إلى نابليون».

وللوهلة الأولى عندما ننظر إلى كثير من أفكاره يبدو لنا أنها بعيدة عن إنسان غطت حياته النصف الثاني من القرن الثالث عشر، لكن إذا ما انبرينا نحو كتابات معاصريه، والسلف الذين عاشوا قريباً من أيامه، نجد تقريباً أن كل واحدة من أفكاره — التي كثير منها مثيرة وغير عادية كما بدت — قد جرى التعبير عنها من قبل آخرين، لكنه دفع بين آونة وأخرى بعض المفاهيم خطوة نحو الأمام، معطياً إياها مظهراً جديداً، وكان هذا أمراً متوقّعا، فما من عصر كان متجمداً ثقافة بالمرّة، ومن المؤكد أن القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم يكونا راكدين تماماً، وإذا جاز الحديث عن ممثل لعصر من العصور بقيامه بالتعبير عن أنواع واسعة من الأفكار والمفاهيم التي كانت رائجة في أيامه، عندها نقول كان دوبوا الممثل لعصره، ولقد تبرهن أن «أصالته المدهشة» و«عصرنته»

أشبهه بالأسطورة.

وكان المحور الفكري لرسالته لعام ١٣٠٦، هو استرداد الأرض المقدسة، ومن أجل تجنيد جيش صليبي، لم يكن لدى دوبوا شيئاً يقدمه أفضل من نظام تطوعي (الفصل ١٠٧)، مردوف بالقوى التي تم تكوينها من الذين سببوا القلاقل في أوروبا، ونظام التطوع الذي نادى به قد اختلف قليلاً عن النظام الذي جرى اتباعه في الحملات الصليبية المتقدمة، حيث كان التطوع آنذاك يجري بواسطة التحريض والإثارة التي قام بها المبشرون، مثل برنارد أوف كليرفو في التحضير من أجل الحملة الصليبية الثانية، أما الحديث عن خدمة المعاقين لآثامهم في فلسطين فإن التبشير فيه يعود قديماً إلى القرن الحادي عشر، وكان اقتراحه بتنظيم الجيش الصليبي، وجعله في سرايا كل واحدة منها تتألف من مائة رجل، ويقود كل واحدة منها قائد مائة (الفصلان: ٢٣ — ٢٤) مشابهاً لخطة فردريك بربروسا بتقسيمه إلى مجموعات في كل واحدة منها خمسين رجلاً، وكذلك لكل مجموعة قائدها، كما أنه لم يكن هناك شيئاً جديداً بشأن الموسيقى العسكرية كوسيلة لتقوية العزائم، أما توصيته بأن يرتدي الصليبيون أزياء موحدة، فقد سبقه بها الانكليز في غنت Ghent في سنة ١٢٩٧، وكذلك من قبل البرجاسية الفلمنك في كورتراي في سنة ١٣٠٢، وكان الملك شارل الثاني ملك صقلية في ١٢٩٢ قد اقترح خطة من أجل حملة صليبية، وقد تضمنت الخطة وصفاً تفصيلاً للزبي الموحد الذي اقترح أن تتزود به الجيوش الصليبية، أما معسكرات الراحة من أجل أن يسترد الجيش معنوياته بعد المعركة (فصل ٢٠)، فهو اقتراح تبنى فيه القاعدة التي أخذ بها فرسان التوتون وطبقوها منذ زمن بعيد.

وبعد سقوط عكا في سنة ١٢٩١، لم تكن هناك من حاجة إلى قوة بصيرة عظيمة لتدرك أن النقطة الأساسية القائمة وراء فقدان المسيحيين

الغربيين لفلسطين كانت هي إخفاقهم بالاحتلال الفعلي للبلاد، فكثير جداً من الصليبيين قاموا بالوفاء بنذرهم بزيارة الضريح المقدس، ومن ثم عادوا على الفور إلى أوطانهم، ولقد أراد دوبوا أن يجعل الاحتلال مستمراً أبدياً عن طريق تشجيع الغربيين على الاستقرار في الأرض المقدسة، وكانت المدن الإيطالية سبقته إلى هذه الفكرة إلى حد ما — بشرها للحصول على حصة في التجارة الراحنة للشرق — بقيامها بعقد صفقات مع الصليبيين للتخلي لهم عن مناطق في البلدان التي جرى الاستيلاء عليها حديثاً، وصحيح أن الحملة الصليبية الرابعة لم تكن تماماً مغامرة استعمارية، كان ما نجم عنها تأسيس دويلات لاتينية في الشرق الأدنى، عاشت لأجيال، وكانت الرهبانيات العسكرية بمقارها الدائمة وقواعدها في فلسطين مكافئاً للحاميات العسكرية التي اقترحتها دوبوا من أجل حماية الأرض المقدسة ضد أي ثورة عسكرية يقوم بها المسلمون في المستقبل (الفصلان ١٠٤ و ١٠٨)، وعندما كتب دوبوا عن المنافع الاقتصادية التي سوف يتم جنيها من احتلال فلسطين، كان هدفه هو تأمين حصة هامة لفرنسا في التجارة التي كانت من زمن طويل تجلب الثراء إلى المدن الإيطالية، أما مسألة الفوائد التجارية التي يمكن تحصيلها بالهجوم الجانبي على مصر، فقد كان قد تحدث عنها من قبل وأوضحها الراهب الفرنسي سكاني فيدنس — Fidence — أوف بادوا في سنة ١٢٩٢ .

وتماشياً مع عدد كبير من الذين تفحصوا بدقة مسألة الحروب الصليبية، أدرك دوبوا تماماً أنه من غير الممكن لحملة صليبية جديدة تحقيق النجاح مادام سلام أوروبا يتعرض للخرق المستمر عن طريق الحروب بين السادة الاقطاعيين، وتتشابه اقتراحاته من أجل منع مثل هذه الحروب مع الخطة التي اقترحت في أوائل القرن الحادي عشر، ونعني بذلك خطة «هدنة الرب» التي تضمنت شرطاً قضى بإقامة حلف

معقود بالأيمان للسلام ولنفي مثيري الحروب إلى الأرض المقدسة (١)، ففي سنة ١٢٠٣، وفي مؤتمر عقد في موزون Mouzon قام كل من روبرت التقي ملك فرنسا والامبراطور هنري الثاني ببحث فكرة إقامة سلم عالمي يشمل أولاً فرنسا وألمانيا، ثم جميع العالم المسيحي.

أما قضية تسوية الخلافات بين الملوك والحكام بوساطة لجنة تحكيم، فيبدو أن فكرة دوبوا هنا بلا سابقة واضحة، ونعني بذلك إقامة مجلس من رجال الدين ومن العلمانيين يتولى تعيين هيئة محكمين واسعة، وصحيح أنه لم يوضح بشكل محدد مدة هذه اللجنة، من الممكن للإنسان أن يستخلص أن دوبوا أراد أن تكون اللجنة الواسعة دائمة، هذا وتوفرت من قبل جهود للتحكيم بمثل هذه الخلافات ونفذت من خلال إقدام المتخاصمين على تعيين فرد أو عدة أفراد للتحكيم فيما بينهم، وهناك أمثلة كثيرة جداً حول التحكيم كمبدأ، سواء كعمل تطوعي من قبل الثمات ذات العلاقة، أو يفرض ذلك من قبل قوة متفوقة، ففي رسالة إلى رجال الدين الفرنسيين في ١٢٠٤، دافع البابا انوسنت الثالث عن حقه ليقوم بالتحكيم فيما بين ملكي إنكلترا وفرنسا، مع أنه كان حريصاً على التنصل من أية محاولة تتعلق بالنيل من سلطات الملك الفرنسي، وفي سنة ١٢٤٦ جرت تسمية الملك لويس التاسع والنائب البابوي يودس أوف شاتور Chateauroux ليكونا حكيمين

١ — نظمت الكنيسة في حوالي سنة ١٠٠٠ في بواتيه حلفاً للسلام ضم كلاً من رجال الدين والاقطاعيين المدنيين، قرر اتخاذ إجراء موحد ضد أي إنسان يثير الاضطراب، وفي سنة ١٣٠٨ جمع رئيس الأساقفة أيمو أوف بورغ Aymo of Bourges أساقفته في مجمع ديني، قضى بوجوب أن يقسم كل مسيحي بلغ الخامسة عشرة من عمره على مواجهة أي حرق للسلام بقوة السلاح إذا اقتضى الأمر، ولم يعف رجال الدين من أداء هذا الواجب لكن طلب منهم قيادة أتباعهم ضد الذين يخرقون السلام، بأعلام خفاقة فوق رؤوسهم، وبالفعل قاد رئيس الأساقفة قوة للقتال كان فيها أكثر من سبعمائة رجل دين، وفي سنة ١٠٤١ راسل بعض رجال الدين الفرنسيين الأساقفة الايطاليين ودعواهم إلى الانضمام إلى «هدنة الرب» القائمة في فرنسا، وقضى الحلف الفرنسي بتجريم كل من يقترف جريمة قتل أيام هدنة الرب، وأن ينفى نفيًا طويلاً إلى القدس.

من أجل تسوية قضية الخلافة لحكم فلاندرز وهينلوت، وفي سنة ١٢٦٣ وضع هنري الثالث وباروناته مسألة الخلاف حول مؤن أكسفورد للتحكيم من قبل لويس التاسع، وأخيراً لا بد أن دوبوا كان بكل تأكيد على دراية بحقيقة أنه قبل سبع سنوات فقط من كتابته «الاسترداد» عمل بونيفيس بمثابة حكم بين فيليب الرابع وادوارد الأول.

أما فيما يختص بقضية الحديث عن الاصلاحات اللاهوتية، فقد كان دوبوا على أرض معروفة، فقد كرر التهم المتداولة كثيراً فيما يتعلق بالاهتمامات الدنيوية، والسيمونية، والشره، وفساد الأخلاق، وهي أمور كلها — أو أكثر منها — يمكن للانسان أن يجدها في كتابات بعض رجال الكنيسة من ذوي السمعة الأرثوذكسية النزيهة، وكان دوبوا قانعاً أنه يمكن التخلص من الدنيوية وإزالتها بالطلب من رجال الدين التخلي عن ممتلكاتهم الدنيوية، ووضعها تحت وصاية دائمة، مع احتفاظهم بحصة من الدخل، وينبغي أن تدار هذه الوصاية من قبل رجال علمانيين، يكونوا بالعادة أكثر كفاءة، وأكثر استعداداً لتقديم الحساب من رجال اللاهوت (الفصلان ٥٢ — ٥٣)، وكانت سابقة الادارة المدنية للشؤون اللاهوتية من قبل الرجال العلمانيين قد أرسيت قواعدها من زمن طويل بوساطة الـ *Negociatores Ecclesiae*، وكان هناك أيضاً الوكلاء التجاريين الرحالة للديرية الذين لم يشجع مساكنوهم على الارتحال من أجل أعمال دنيوية، وقدمت الاقتراحات من أجل المصادرة الكاملة للأملاك اللاهوتية في أثناء الصراع من أجل انتخاب البابوات، فقد اقترح البابا باسكال الثاني على هنري الخامس بشكل رسمي وجوب تخلي رجال الدين عن جميع السلطات الحكومية والامتيازات التي هم مدانون بها للملوك العلمانيين، وكان هذا يعني شمول تسليم جميع الممتلكات اللاهوتية، التي ليست فعلياً

ضمن «الهبات والممتلكات الوراثية» للكنيسة، وقد ذهب غيرهوه فون ريكسبيرغ Gerhoh von Reichersberg (حوالي ١١٥٠) إلى القول بأن الأمير يمتلك الحق في حرمان الأسقف من ممتلكاته بسبب أي خرق للالتزامات الاقطاعية، وفيما يختص بميراث القديس بطرس، قام في سنة ١٢٧٣ سفراء فيليب الثالث بالاقتراح على غريغوري العاشر، بأن يتولى الإشراف عليه وإدارته من قبل واحد من الملوك الأقوياء، وأجاب غريغوري بأنه سيرحب بمثل تلك الترتيبات، وأن الملك الفرنسي سوف يكون شخصاً موائماً لتولي الاشراف والإدارة.

والتاريخ الديري متخماً بالجهود في سبيل الاصلاح، ومعظم الرهبانيات التي تأسست في أثناء العصور الوسطى تأسست وهذا في الذهن، وعندما اقترح دوبروا إلغاء جميع الديرة غير الرهبانية، واستخدام جميع موجوداتها لحماية الأرض المقدسة (الفصول ٥٤ — ٥٧) كان يردد فقط التوصيات المحددة التي قدمها همبرت القائد الأعلى لطائفة الدومنيكان في كتابه Liber de Tractandis Inconcilio Lug-dunensi الذي كتبه من أجل عرضه على مجمع ليون في سنة ١٢٧٤، وكان وليم دورانتي Duranti قد كرر الاقتراح نفسه قبل انعقاد مجمع فيينا في سنة ١٣١١ في رسالته Tractatus de modo alebrandi concilii et corruptelis in eulesia Reformandis ، هذا ولم يتضمن اقتراح دوبروا تحويل الرهبانيات النسائية إلى مدارس للبنات (الفصل ١٠٢) فكرة إلغاء هذه الرهبانيات، وفي الحقيقة لعل فكرته كانت مجرد عملية تبني لممارسة كانت قائمة، ذلك أن مدارس النحو المرتبطة بالديرة لم تكن أمراً اعتيادياً، فقد كانت هذه المدارس مدارس علمانية يتولى التعليم فيها معلمون علمانيون، وكانت متميزة تماماً عن المدارس المخصصة للرهبان، ومن المحتمل وجود مدارس مشابهة للبنات كانت مرتبطة برهبانيات النساء، ولاقت انتقاداته لعزوية

رجال الدين التأييد من كتلة كبيرة من الرأي العام الفرنسي، وذلك إذا ما أخذنا بمثابة دليل الانفعالات العاطفية التي وردت في الجزء الثاني من الكتاب الشعبي واسع القراءة *Roman de la Rose* ، الذي تولى كتابته واحد من رجال الدين في حوالي سنة ١٣٠٠، وخرج آرنولد أوف فيلانوف، الذي كان طبيب بونيفيس الثامن باحتجاج قوي جداً ضد عزوبية رجال الدين، وفي أثناء الصراع فيما بين فيليب والبابا تداول الناس *Quia nonnulli* ، وهو مرسوم مزيف قيل صدر عن البابا بونيفيس، وتضمن هجوماً على عزوبية رجال الدين، وأوصى بزواج رجال الدين من البابا إلى كهنة الأبرشيات ، بحكم ما ورد في الكتاب المقدس، ولعل هذه المقترحات من أجل تغيير الوضع الرسمي المفروض على رجال الدين بالنسبة للزواج، قد جرى تحريكه بوساطة تيارات المحادثات التي كانت قائمة من أجل الاتحاد مع الكنيسة الاغريقية، التي لم يمارس رجال الدين فيها العزوبية، ونقل وليم دورانت عن العهد الجديد، ومن ثم اقترح على مجمع فينا الاهتمام الزائد بإمكانية إلغاء عزوبية رجال الدين، وتبني المبادئ الممارسة منذ أمد طويل في الكنيسة الإغريقية.

ولم يتجرأ دوبروا على اقتراح إلغاء رهبانية الداوية حتى أعلن فيليب الرابع هجومه على هذه الطائفة بشكل معلن ومكشوف، فقبل سنة ١٣٠٨ قيد نفسه باقتراحات من أجل دمج الرهبانيات العسكرية، ومصادرة أملاكهم في الغرب، ويمكن هنا ذكر عدد كبير من السوابق لمثل هذه المقترحات، ففي سنة ١٢٢٩ قام فردريك الثاني بطرد الداوية من صقلية، وصادر ممتلكاتهم ومقتنياتهم، وعندما استدعاهم للعودة فيما بعد لم يعد إليهم ممتلكاتهم، وكان البابا غريغوري العاشر قد اقترح في مجمع ليون سنة ١٢٧٤، دعم الرهبانيات العسكرية، وقام البابا نيقولا الرابع في آب ١٢٩١، لدى سماعه بالأخبار من عكا ، بتوجيه البطارقة

ورؤساء الأساقفة لعقد مجمع ديني إقليمي، حيث ينبغي دراسة مسألة دمج الرهبانيات العسكرية وتقويتها، وعندما طالب بالعون المالي من أجل حملة صليبية جديدة، من الأساقفة الألمان، عبّر هؤلاء عن موافقتهم على مشروع دمج الداوية والاسبتارية وفرسان التيوتون في رهبانية عسكرية واحدة، على أساس أن سقوط عكا جاء نتيجة للخلافات فيما بينهم، وكان ريموند لول قد اقترح مراراً عملية الدمج هذه، وكذلك كان شارل الثاني، ملك صقلية، قد اقترح ذلك في سنة ١٢٩٢، والفكرة الوحيدة الجديدة المعزوة إلى دوبوا في هذا المجال كانت اقتراحه بوجود تكريس الممتلكات المصادرة التي كانت عائدة إلى هذه الطوائف، لصالح المدارس التي كان ينادي بها كسمة أساسية لخطته من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها.

أما اقتراحه من أجل تأسيس مدارس لإعداد الغربيين من الشباب من الجنسين للخدمة في الشرق الأدنى، فقد كان جديداً من حيث الدرجة وليس من حيث الفكرة، فبعض هذه الخدمات سيكون إدارياً من أحد الجوانب وتبشيراً من جانب آخر، وكان بعضهم قد بحث في المفهوم التبشيري، ففي ٢٢ حزيران وجه البابا انوسنت الرابع مرسوماً إلى رئيس جامعة باريس، طلب فيه بشكل رسمي إرسال بعض الشباب الذين تعلموا اللغات الشرقية، إلى الجامعة من أجل التدريب اللاهوتي، وإرسالهم بعد ذلك إلى الشرق لتعليم الآخرين الايمان الصحيح وتحويلهم إليه، ولقد شرعوا في تنفيذ هذا المشروع بالفعل، ودليلنا على ذلك، تشير إليه حقيقة أنه في التاريخ نفسه حرر البابا انوسنت راعي دير القديس بيير دي تشارترز مع الرهبان، من واجب دفع الأموال لدعم هؤلاء الشباب، كما كلف بارسال سفارة إلى التتار من أجل تحويلهم إلى الايمان المسيحي.

أما مدارس النحوذات النموذج العام الذي دعا إليه دوبوا، فقد

كانت موجودة في كل مدينة تقريباً، وكذلك في بعض المراكز الهامة، وكان عملها الأساسي هو تزويد الطلبة بالتدريبات الأساسية إعداداً للدراسة الجامعية، وكان من المفترض تأسيس مدارس مماثلة في باريس من أجل الفتيات، وكان المرتل في نوتردام يمارس الاشراف عليهم، فيقوم بمنح إجازات إلى معلمي مدارس الصبيان، وإلى معلمات مدارس البنات، وأورد راشدول Rashdall قائمة فيها أسماء اثنين وأربعين معلماً، وإحدى وعشرين معلمة، نالوا جميعاً الاجازات.

ولم يكن دوبوا قانعاً بالمدارس القائمة، لكن منهاجه أخفق في تحقيق أية تغييرات أساسية، وكان من حيث الجوهر متطابقاً مع منهاج الدراسة الذي كان موجوداً في جامعة باريس، والمصادر النصية التي أوصى بها بالاسم (الفصل ٧١) كانت هي الكتب المتعارف عليها والمستخدمة، وقد انتقد بعضاً من هذه الكتب لطول نصوصها، وأوصى بتكثيفها للتوفير على الطالب الوقت والمال، وفي حقيقة إتيانه على ذكر بعض النصوص المختصرة لكتب مشهورة، دليل على أن آخرين قبله قد حاولوا الأخذ بحل مشابه، وبما أنه كان مشغولاً بأهمية الخبرة العملية — وهي فكرة لعله استقاها من روجر بيكون — كان يرغب بتسارع برنامج الدراسات إلى حد يتمكن فيه الطالب من إكمال تعليمه النظري في سن مبكرة.

وكان من بين أهم ملامح منهاجه التعليمي نقطة أولها اهتماماً خاصاً، قضت بدراسة اللغات الأجنبية الحديثة المستخدمة في الشرق، وبشكل خاص الاغريقية والعربية، وكانت بعض الجهود في هذا الاتجاه قد بذلت من قبل، لكن ليس على مستوى الفهم الذي نادى به دوبوا، فقد جرى في سنة ١٢٥٤ تأسيس مدرسة في إشبيلية من أجل دراسة اللاتينية والعربية، وفي حوالي سنة ١٢٧٥ أقنع ريموند لول ملك مايروكا بالقيام بإنشاء دير مزود بما يكفي من المال، من أجل دعم ثلاثة

عشر راهباً من الشباب كان عليهم دراسة العربية، من أجل القيام بعمل تبشيري بين المسلمين، وبعدها حصل هؤلاء الرهبان على بعض المعارف المتعلقة بالعربية من عبد عربي، ذهبوا إلى أفريقيا، غير أنهم طردوا من هناك بوساطة المسلمين، وأسس ريموند بينافورت، الذي كان القائد العام الثالث للدومنيكان مدارس في الديرية الأفريقية والإسبانية من أجل هذا الغرض، وكان قائد عام آخر للدومنيكان هو ريموند مارتيني مشهوراً لمعارفه بالعبرية والكلدانية والعربية، إلى حد أنه كتب عملاً لاهوتياً ضد الاسلام بالعربية، وكان روجر بيكون، الذي كان اهتمامه باللغات الحديثة منصباً على فقه اللغات أكثر منه على العمل التبشيري قد كرس القسم الثالث من كتابه *Opus maius* على هذا الموضوع، كما أنه ألف بالنحو الاغريقي.

وبالنسبة لتعليم النساء، فقد كان دوبا متقدماً خطوة أو خطوتين على معاصريه، وورد من قبل ذكر وجود مدارس للفتيات، لكن النساء كن ممنوعات من دخول الجامعات التي تمتعت باحتكار التعليم العالي النظامي، وجرت العادة بالنسبة لمن رغبن بالحصول على تعليم فوق التعليم الابتدائي، تأمين معلمين خاصين، وقد ورد ذكر عدد من النساء حصلن على تعليم جيد، منهن على سبيل المثال هروتسفيشا أوف غندرشيم *Hortsvithaof Gandersheim* في القرن العاشر، وهيلوياس *Heloise* في القرن الثاني عشر، لكن هاتين كن استثناء، وكان بين المعلمات العلمانيات في فلورنسا سنة ١٣٠٤، امرأة متزوجة، اسمها كليمنتيا *Clementia*، وقد حملت لقب *Doctrix Puerorum*، وقد تولت تدريس مبادئ اللاتينية، وكان من غير المعتاد تماماً بالنسبة للنساء النييلات الحصول على بعض التدريبات في الطبابة والجراحة، وقد أراد دوبا قبول الفتيات بشكل منتظم في مدارس تدريبية للخدمة في الشرق، وكان سيقدم لهن الدورات نفسها تقريباً التي

تقترح للدراسة من قبل الصبيان، إنما مع تركيز الاهتمام على الأدوية والجراحة ومبادئ الإيمان الكاثوليكي، وقد أقرّ - على كل حال - أن قدرتهن على استيعاب مثل هذه التدريبات كانت محدودة، ولهذا لم يقترح قبولهن في مدارسه المتقدمة للطب، والعلوم، والقانون، واللاهوت، ويبدو أن اقتراحه بأن يتزوجن رجال دين إغريق ومسلمين من أجل تحويلهم، كان مجرد جهد لإعادة تطبيق ما قام به سليمان الأمر الذي أشار إليه في الفقرة التالية (الفصل ٦١).

وعرّف دوبروا نفسه في الجمل الافتتاحية لكتاب الاسترداد بمحامي الاستئناف للقضايا اللاهوتية العائدة لأدوارد في أكويتين، وعلى هذا لقد كان مدركاً للنزاع الطويل الأمد بين القضاء اللاهوتي والقضاء الملكي، وكان يعرف أن القضية لا تحتاج إلى البحث هنا، وقد امتلك بحكم كونه محامياً ممارسة خبرة من الطراز الأول بالإجراءات المملة المتعلقة بالأعمال القانونية في القرن الثالث عشر، وقد ضمن الـ Summaria مقترحات للاسراع بالاجراءات القانونية، واقترح في «الاسترداد» بأن هذا من الممكن إنجازه بالطلب من الادعاء ومن الدفاع تقديم التماساتهم كتابة (الفصول ٩١ - ٩٥)، وحين طالب بالمزيد من الاجراءات الكتابية كان يتماشى تماماً مع التيارات الجارية، ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر أحدث تأثير القانون الروماني والقانون الشرعي تطبيقاً تدريجياً لتسهيل الاجراءات القانونية، والتي زادت من استخدام الوثائق المكتوبة، وزادت بالتالي من أهمية المحامين وكتاب العدل، وبدأ التغيير بالظهور في المحاكم الملكية مع سنة ١٢٥٠، وفي سنة ١٢٩٠ استخدمت الطلبات المكتوبة في برلمان باريس، وفي الوقت الذي كان دوبروا يكتب فيه الاسترداد، كانت حتى بعض المحاكم الاقطاعية تتبع الاجراءات الجارية في المحاكم اللاهوتية والمحاكم الملكية، وفي سنة ١٣٠١ كتب يودس صاحب مقاطعة السين دليلاً في القانون هو Sum-

ma de Judiciis Possessoris ، أسسه على القانون الروماني، وقد اقترح فيه خطة من أجل تبسيط الإجراءات القانونية وتقصيرها في القضايا المدنية.

وإذا ما تطرفنا كثيراً في أن نصف للفرنسيين روح الوطنية في أوائل القرن الرابع عشر، وقلنا بأنها كانت بالفعل قريبة من روح القرن التاسع عشر، نجد دوبوا يعبر عن أنشط مشاعر الوطنية الفرنسية، فمع أنه كان من حيث الجوهر رجل سلام، شعر بنفسه بأنه مؤهل لتقديم النصيحة للملكة حول القضايا العسكرية، وكانت هذه النصيحة بالفعل أكثر قليلاً من التوصية بأن على الملك أن يطبق بدقة نظام الالتزامات الاقطاعية القائم فيما يتعلق بالخدمة العسكرية، وكان دوبوا قانعاً أنه إذا ما طبق هذا، لن يحتاج الملك إلى التردد بالقيام ببرنامج التوسع الذي طرحه عليه في كتاب الاسترداد، وكان هذا التوسع قائماً وأخذاً طريقه قبل أن يكتب دوبوا، فقد تم الاستيلاء على نورماندي ولانغدوك قبل تنويع فيليب الرابع، وفي سنة ١٣٠٠ أخذت فلاندرز، وكانت الخطوة المنطقية التالية في هذا الاتجاه الضيقة اليسرى من الراين، وفي الاتجاه نحو الجنوب الشرقي لم تكن هناك حاجة لكاتب منشور ليظهر الرغبة بالاستيلاء على مملكة أرن، وكان فيليب الرابع منذ بعض الوقت راغباً في مد نفوذه فوق الامبراطورية، ففي سنة ١٣٠٨ اقتنص الفرصة التي تهيأت باغتيال ألبرت الأول، للقيام بحملة فعالة من أجل اختيار أخيه شارل أوف فالويس، وقد تزوج شارل في سنة ١٣٠١ كاترين أوف كورتناي، التي كانت وريثة امبراطورية القسطنطينية اللاتينية الميتة، وأعطاه هذا حجة للمطالبة بمملكة شرقية، الأمر الذي حاول أن ينفذه ويجعله حقيقة قائمة، وكان التوسع بالنفوذ الفرنسي بالحفاظ على مصالح أسرة كايه في إيطاليا وإسبانيا وهنغاريا، أمراً طبيعياً إلى حد أن الفكرة كانت ملكاً للجميع، وقد هيأ انتخاب البابا الفرنسي (كليمنت الخامس) مجالات

جديدة للتوسع بالنفوذ الفرنسي، فلو أن البابا أقدم على تعيين ما يكفي من الفرنسيين الكرادلة، فمن الممكن بقاء البابوية ذات هوية فرنسية، ففي سنة ١٣٠٥، أي قبل أن يقترح دوبوا هذا الأمر في الاسترداد، بدأ كليمنت سلسلة من الترفيعات ضمنت أكثرية فرنسية في مجمع الكرادلة.

ولم يكن الغلو بالمشاعر الوطنية حكراً بأي حال من الأحوال على الفرنسيين فقد أعلن جوردانوس أوف أوسنابروك Jordanus of Osnabruck في سنة ١٢٨٠ في كتابه De Praerogativa Romani Imperii ، أن من واجب البابا تقديم العون إلى الامبراطور للحفاظ على مكانته السامية والإضافة إليها، وأعلن أنه بواسطة الترتيبات الربانية جرى منح السلطة الامبراطورية العائدة للرومان، أي المملكة العالمية، إلى الألمان، وينبغي عدم بقاءها مع الرومان، الذين ينبغي أن يكونوا راضين بالحفاظ على البابوية وقانعين بها، وكذلك يتوجب عدم ذهابها إلى الفرنسيين الذين لا بد أن تكون الهبة الربانية بالتعليم كافية لهم.

وعلى هذا يمكننا الوصول إلى محصلة مفادها أن أفكار دوبوا الأصيلة حقاً تتضمن القليل فقط أكثر من خطته المحددة من أجل نظام للتحكيم العالمي مع اقتراحه من أجل تأسيس نظام للمدارس، يمكنه أن يقبل بالتدرج نساءً من أجل التدريبات الاحترافية، وهذا لا يعني مطلقاً أنه نقل عن وعي جميع أفكاره المستعارة الأخرى، فلعله توصل نحو الكثير من الأفكار مستقلاً، وهذا يعني أن جميع الأفكار التي أطلقها كانت بعضاً، لا بل كلاً من اهتمامات عصره، أي أنه لم يكن «متقدماً بقرون على عصره» بل كان ممثلاً حقيقياً له.

مكانة دوبوا وأهميته

وإذا لم يكن دوبوا مفكراً أصيلاً، فأين تكمن أهميته، قطعاً ليس في

تأثيره على عصره أو العصور التالية، التي كانت منعدمة على الرغم من الآراء التي عبر عنها رينان وديلافيلا لي رولكس، وتكمن أهميته في الحقيقة عينها في أن أفكاره لم تكن أصيلة، فقد عمل بمثابة مرآة عكست حشداً هائلاً من الأفكار التي كانت رائجة في عصره، وليس هاماً أبداً كم بدت لنا معظم أفكاره غير واقعية ووهمية، إن هذه الأفكار هامة لأنها ترينا كيف نظر إنسان مثقف ومنطقي، وحسن المعرفة إلى مشاكل السياسات العالمية في مطلع القرن الرابع عشر، وهو ما كان معاصراً له، وهنا لدينا إنسان متفرد، فقد كان علمانياً مع ميول صحفية للتعبير، وقد تدرّب في أفضل جامعة في أيامه، وكان رجلاً عملياً في مواجهة المشاكل، وقد تماشى مع التفكير المعاصر له، وقد حصل على الثروة وعلى بعض الاعتراف والتقدير في ممارسة القانون، وكان أيضاً رجلاً قد تأثر بعمق بالتيارات التي كانت متجهة نحو تأسيس ملكية قوية، في داخل الدولة القومية التي كانت آخذة بالظهور شيئاً فشيئاً، وقد أراد أن يحرك هذه التيارات ويزيد من اتساعها، بإثارة الرأي العام لصالحها، وكان إنساناً، قد شعر — كما يبدو — بشكل غير واضح، بروح عدم الاستقرار، وعدم الرضا عن الحياة الرتيبة المشبعة بالأوهام للقرن الثالث عشر، التي ما لبث القرن الرابع عشر أن انفجر ضدها بثورة مفتوحة، وكان رجلاً قد شعر بأن «الوقت يفلت من بين الأيدي»، وهو قد قدم برامج للإصلاح كانت واسعة ومتناسكة إلى حد ما، ودعا إلى تطبيقها.

وقد امتلك قدرة على استيعاب أفكار الآخرين وجعلها أفكاراً له، وأن يقوم أحياناً بنسج الأفكار المتعارضة، ومن ثم إخراجها على شكل خطة موحدة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها وسبيل زيادة عظمة فرنسا وملكها، ومن المحتمل أنه لم يكن واقعياً لكنه كان جاهزاً مع اقتراحات للإصلاح وللتحسين في عدد من الميادين المختلفة، وقد اندفع إلى داخل ربها ما خشيت ملائكة أيامه من

السيرخوة فيه، فقد قاتل ضد عزوبية رجال الدين، ودعا إلى قمع السلطة البابوية الدنيوية، وإلى مصادرة الممتلكات اللاهوتية من قبل التاج، وإلى إصلاح النظام الرهباني، وإلى إعادة تنظيم المنظمات العسكرية، وإلى التحويل الجزئي للرهبانيات النسائية إلى مدارس للفتيات، حيث يدرين على الطبابة والجراحة، ويتزوجن من منسقين دينياً ومن كفار من أجل تحويلهم، ورأى أنه يمكنه ضمان سلام دائم بوساطة نظام تحكيم دولي، وتأسيس فيدرالية أوربية تحت السيادة الفرنسية، وأراد تأسيس هيئة من المدارس بدورات متسارعة الدراسة تستهدف إعداد شباب فرنسا من أجل استعمار البلدان النائية وإدارتها، وكان يرغب في إعداد كتب دراسية نصية جديدة، وتنقيح المجموعات القانونية، وتحسين الاجراءات القضائية في المحاكم، ومع أنه عدّ الحرب شراً، كان جاهزاً ومعه خططه لإعادة تنظيم النظام العسكري الفرنسي، في سبيل إعادة تأهيل القوات وتحسين سوقيتها، ومن أجل إدارة الحروب وتوجيهها في البحر وفي البر، وهنا قد توفرت لديه اهتمامات كاثوليكية بارى فيها اهتمامات كل من روجر بيكون ودانتي.

مخطوطة وطبعات استرداد الأرض المقدسة

وصلنا نص كتاب الاسترداد في مخطوط واحد، هو المخطوط اللاتيني رقم ١٦٤٢ في مكتبة الفاتيكان، وهو موجود على ورق مسطرته ١٧ X ٢٢ سم، والمخطوط بحالة جيدة، ويحتل مخطوط الاسترداد الأوراق ١ - ٤١ من المجلد، والمخطوط مكتوب في القرن الرابع عشر، والخط جيد تماماً، لكن أضيفت له مختصرات لا حد لها عددياً، وأحياناً هي غريبة، وأظهر الناسخ شواهد على أنه قرأ الكتاب بعناية، لوجود عدد من الاضافات في الهامش، وجاء بعضها عبارة عن شروح أضافها الناسخ، ولم تكن تصحيحات ولا أعمال حذف، وأنا لم أستطع تفحص المخطوط الأصلي مباشرة، لكن تلفتت مكتبة الفاتيكان

فزودتني بنسخة مصورة عنه رائعة، وقد قارنتها بالنص الذي تولى تحقيقه لانغلويس.

وكان قد جرى تحقيق هذه الرسالة من قبل بونغارس Bongars على أنها مجهولة المؤلف، وقد نشرها في كتابه Gesta dei Per Fran-cos (جزءان — هانوفر ١٦١١) ج٢ ص ٣١٦ — ٣٦١، ولم يتولى لانغلويس حين عمل على إخراج طبعة جديدة للكتاب — كما يبدو — شخصياً تفحص مخطوط الفاتيكان، بل كان قد كلف بذلك واحداً من تلامذته، واسمه كولون Collon، فقد تولى كولون مقارنة نص بونغارس بالأصل، وكانت النتيجة اكتشاف عدد كبير من الأخطاء مع إسقاط عدد من الجمل، هذا وقامت طبعة ١٨٩١ التي تولاهما لانغلويس على نسخة أخذت عن مخطوطة الفاتيكان، تولى كولون نسخها، وهذه تحتوي على عدد غير هام من التصحيفات، وجرى على الأقل إسقاط كلمة واحدة من النص، والأهم والمتعب والمحير للمترجم هو المزج بين حرفي «S» و«F»، ويغير هذا في بعض الحالات المعنى كلياً ومادياً، وأقصى ما جرى توجيهه من نقد إلى طبعة لانغلويس هو حذفه المتعمد لجزء من الوثيقة القصيرة لعام ١٣٠٨ التي وردت في المخطوطة اللاتينية رقم ١٠٩١٩، الموجودة في المكتبة الوطنية، وكان قد نشر هذه الوثيقة بمثابة ملحق لكتاب الاسترداد، وهناك فقرة ناقصة موجودة في الطبعة التي تولاهما بالوز Baluze وأودعها في كتابه Vitea Puparum Avenionensium (جزآن باريس ١٦٩٣) ج٢ ص ١٩٥، وقد تولى لانغلويس نقلها، وكان بالوز مسؤول بدوره عن إلغاء ثلاثة فقرات موجودة في المخطوط، وهي التي تحتوي على حكايات تأمرية ضد بونيفيس الثامن، وعندما أخرج مولات Mollat طبعته الجديدة من بالوز (٤ — أجزاء، باريس ١٩١٤ — ١٩٢٧) عاد إلى المخطوطة اللاتينية رقم ١٠٩١٩، حيث وجد الفقرات الناقصة،

فأعاد إدخالهن إلى نصه المطبوع (ج ٣ ص ١٥٤ - ١٦٢)، ولا بد أن لانغلويس كان يعرف المخطوطة اللاتينية ١٠٩١٩، لأنه نقل منها عدة مرات، ولعله حذف ما حذف بسبب ما تذوقه ورآه مناسباً، غير أنه لم يقم بالاشارة إلى أن نصه ناقص.

وباستثناء هذه العيوب، تعدّ طبعة لانغلويس طبعة رائعة، فبدونها ما كان بالامكان إخراج الترجمة الحالية، وقد تم تبني حواشيه بشكل كامل تقريباً مع شيء طفيف من التعديلات للتحديث فقط، وأمد لانغلويس طبعته وزاد عليها نقولاً كثيرة من كتب دوبوا الأخرى، ولاسيما من كتاب Summaria الذي لم يكن محققاً بعد، وقد تضمنت الترجمة الحالية هذا كله، مع إضافات كان لانغلويس قد أهملها لتوضيح المعاني، وقد التزمت الترجمة بالنص المخطوط، ولم تتعد عنه.

وكان بونغاريس عندما حقق الاسترداد قسمه إلى فصول، وكان الناسخ قبله قد اعتمد وسيلة أكثر إحكاماً، بوضع إشارات لبدائيات الفقرات، وقد حافظ لانغلويس عليها عن طريق الترقيم، مع أن الوسيطتين لاعلاقة مباشرة لهما بالأصل، ولا بترتيب موضوعات النص، وقد حافظنا في هذه الترجمة على نظام الترقيم من أجل الاحالات على الطبعات التي تقدمت على طبعة لانغلويس لسنة ١٨٩١، وأشار إلى أرقام فصول بونغاريس بالأرقام العربية بين حاصرتين، أما أرقام فصول لانغلويس فأشير إليها بالأرقام الهندية.